الفصل الثالث

دور الأسرة فى تنشئة الطفل

دور الأسرة فى تنشئة الطفل

كانت الأسرة فى فجر التاريخ هى الهيئة الوحيدة المسئولة عن تربية وتنشئة الطفل فالعشيرة البدائية هى التى كانت تقوم وحدها بتربية الطفل جسميًّا وعقليًّا وخلقيًّا وتهيئ له وسائل إعداده للحياة بدون تدخل من جانب أى سلطة أخرى من سلطات المجتمع. وكانت جهود المنزل التربوية فى مبدأ الأمر مختلطة بوجوه أنشطته الأخرى وغير متميزة عنها، وبذلك كانت تربية الأطفال متروكة للعوامل غير المقصودة يساعدها المنزل فى ذلك ويكمل نقصها، ثم أخذ المنزل يوجه عناية خاصة لشئون التربية ويوجهه إليها فى صورة مقصودة، وبعد أن ظهرت الكتابة ودون تفصيلاً ما اهتدى إليه الإنسان من حقائق فى مختلف الشئون، وأصبحت تربية الأطفال تهتم بتزويدهم بما كشفه السلف فى مبادئ العلوم والفنون أضيفت إلى وظيفة المنزل التربوية القديمة وظيفة جديدة هى وظيفة التعليم بمعناه الخاص. وكان يقوم بهذه الوظيفة الآباء والأقرباء وكبار أفراد الأسرة والعشيرة.

ثم أخذ المجتمع - كنتيجة للتطوير الحضرى السريع - ينتزع من الأسرة هذه الوظيفة شيئًا فشيئًا، ثم نشأ للإشراف عليها هيئات خاصة تتمثل فى دور الحضانة والمدارس والمعاهد والجامعات ومنظمات التربية الرياضية والاجتماعية والنوادى والمكتبات، ووسائل الإعلام والمؤسسات الاجتماعية الأخرى التى تعنى بتربية الأطفال وعلاج ما قد يصيب بعضهم من انحراف أو جنون، كما وضع التزامات على الأسرة تتعلق بتربية أطفالها وتنشئتهم وتعليمهم كنظام التعليم الإلزامى الذى يجبر كل أسرة أن تبعث أولادها فى مرحلة معينة من مراحل طفولتهم إلى مدارس

خاصة لتلقى منهج دراسى رسمته الدولة لجميع أفراد الشعب، وكنظام الخدمة العسكرية الإجبارية الذى يوجب على كل أسرة عندما يبلغ أولادها سنًّا معينة أن تقدمهم لتلحقهم بجيشها العامل مدة معينة وتدريبهم فى أثنائها تدريبًا عسكريًّا.

ولكن على الرغم من هذا التطور وحتى فى تلك المجتمعات الصناعية التى انكمشت فيها الأسرة وصغر عدد أفرادها وانصرفت معظم الأمهات فيها إلى المشاركة فى السعى لزيادة دخلها، وعلى الرغم من تعدد المؤسسات والهيئات التى تشارك الأسرة وظيفتها فى تنشئة الطفل - فإن المنزل لا يزال عاملًا من أهم عوامل التربية وما زالت الأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع المنوط بها تقديم الجزئيات الجديدة فى بنيانه التى يعتمد عليها فى تربية الأطفال وحسن تنشئتهم ورعايتهم وسد مطالبهم وإشباع حاجاتهم المادية والروحية والعاطفية والنفسية، وما زالت الأسرة فى تلك المجتمعات هى الوسيط الناقل للتراث الحضارى واللغة والدين من جيل إلى جيل، وقد لا نعدو الصواب كثيرًا إذا قلنا: إن أثر المنزل يفوق الهيئات والمؤسسات الاجتماعية الأخرى، فعلى المنزل تتوقف آثار هذه الهيئات جميعًا فبصلاحه وتماسك أفراده ينشأ الطفل نشأة صالحة وبفساده وانحلاله وتفكك أفراده بجانبه التوفيق وتفشل فى إعداد جيل متكامل الشخصية قوى البناء.

فالمنزل يكاد يكون هو المهيمن الأول والأساسى فى رعاية الطفل الجسمية والنفسية فهو الذى يوفر له الغذاء والكساء والدفء والحنان ويحقق حاجاته النفسية ويرضى نزعاته وميوله. وهو الذى يضع المبادئ الأساسية لصحة الفرد الخلقية ففيه تتشرب القيم والمثل الأخلاقية كحب الصدق وكره الكذب وحب الكرم والتعاون وكره الأنانية.

وفى المنزل توضع اللبنات الأولى فى التكوين العقلى عن طريق الثقافة المنزلية والأحاديث والصور والإجابة عن أسئلة الطفل الاستشارية.

ويعتبر الجو المنزلى المسئول الأول عن التربية الوجدانية للطفل فعن طريقه يهوى الجمال والفن والنظافة وحسن الترتيب.

وللمنزل بجانب هذا كله وظائف تربوية خطيرة خاصة به يكاد لا يشاركه فيها غيره ولا يغنى فيها عنه أى عامل آخر:

١- فهو العامل الوحيد للحضانة والتربية المقصودة فى المراحل الأولى للطفولة ولا تستطيع أى مؤسسة عامة أن تسد مسد المنزل فى هذه الشئون. ولا يقصد من دور الحضانة أو الكفالة التى تنشئها الدولة والهيئات لإيواء الأطفال فى مراحل الأولى إلا تدارك الحالات التى يحرم منها الطفل من الأسرة أو تحول فيها ظروف قاهرية بين الأسرة وبين قيامها بهذه الوظيفة، ولا تستطيع هذه المؤسسات مهما توفرت لديها من إمكانات مادية وبشرية أن تحقق ما يحققه المنزل السليم فى هذه الأمور.

٢- وعلى المنزل يقع قسط كبير من واجب التربية الخلقية والوجدانية فى جميع مراحل الطفولة بل فى المراحل التالية كذلك، وفى الأمم التى تحارب مدارسها الرسمية الدين بطريق مباشر أو غير مباشر كالأمم الشيوعية، وفى الأمم التى تسير معاهدها الدراسية على نظام الحياد فى شئون الدين والأخلاق وتنفض يدها من جميع الأمور التى تتصل بهذه النواحى كفرنسا وأمريكا – فى هذه الأمم يقع عبء التربية كاملًا على عاتق المنزل وحده.

٣- وبفضل الحياة فى الأسرة يكون لدى الفرد الروح العائلى والعواطف الأسرية المختلفة وتنشأ الاتجاهات الأولى للحياة الاجتماعية المنظمة والعواطف والاتجاهات اللازمة فى المجتمع.

٤- وقد أثبتت الدراسات النفسية أن طابع شخصية أى فرد يتكون أولًا فى الأسرة التى ينشأ فيها وأن تعامله مع نفسه وفى عمله وفى المجتمع يتوقف على الطابع الثابت نسبيًّا الذى تكون فى محيط حياته فى الأسرة – فالأسرة إذن هى مهد الشخصية لهذا يتم علماء الاجتماع والتربية وعلماء النفس بدراسة سيكولوجية الأسرة وأثرها فى تكوين الشخصية.

ولكل أسرة طابعها كما أن لكل فرد منا طابعه، فكما أننا لا نجد أى اثنين متشابهين على الإطلاق فكذلك لا يمكننا أن نجد أسرتين متشابهتين تمام التشابه خصوصًا إذا أخذنا فى الاعتبار التشكيلات والصور المتعددة التى يمكن أن تأخذها الأسرة بحسب العوامل المؤثرة فيها من حيث تكامل الأسرة أو نقص بعض أركانها، ومن حيث التوافق بين الأفراد، ومن حيث الطباع والثقافة، ومن حيث القيادة ومصدرها والمسئوليات وتوزيعها، ومن حيث نوع المعاملة السائدة من شدة ولين ومن نظام أو فوضى ومن مرونة أو تزمت، وما يتبع ذلك من درجة التكيف والإحساس بالسعادة أو الشقاء إلى جانب العوامل المادية والاقتصادية التى تؤثر فى طابع الأسرة وبالتالى على شخصية أفرادها. فالطفل وسط كل هذه الأجواء يتأثر بكل ما فيها وتتطبع نفسه بالقالب الخاص الذى يعتبر محصلة جميع هذه العوامل.

١ - الحياة العائلية وأثرها فى صحة الطفل العقلية:

تعتمد الصحة العقلية للطفل على مدى إشباع حاجاته الأساسية، ولهذا فإن الطريقة التى يعامل بها فى سن الطفولة الأولى فى المنزل تكون على قدر بالغ من الأهمية وليس هناك اختلاف حول أهمية توفير العناية الجسمية والتغذية الصحية فى المنزل، أما أهمية الحياة العائلية المريحة والاستقرار النفسى للنمو الانفعالى السوى عند الطفل فهو ما لا يدركه الكثيرون.

٢ - العلاقة بين الأبوين وأثرها على الطفل:

يؤثر سلوك كل من الأبوين تجاه الآخر على صحة الطفل العقلية، وقد أثبتت البحوث أن معظم الأطفال المشكلين يأتون من منازل مفككة ومنازل تكثر فيها الاحتكاكات بين الزوجين أكثر مما يأتون من منازل تتوفر فيها علاقات سليمة، فحيثما يكون جو المنزل متوترًا بسبب اختلاف الأبوين فإن الطفل عادة يكون حائرًا بين خضوعه للأب أو خضوعه للأم، وفى بعض الأحيان يتعلم الطفل أن يستخدم أحد الأبوين ضد الآخر أو يستخدم أحد الأبوين الطفل بنفس الطريقة، أو قد يهمل

كلا الأبوين الطفل مما يجعله يعتقد أنه غير محبوب أو عديم القيمة، وهو سلوك يهدد أمن الطفل ويتركه فريسة للشك والوحدة؛ مما قد يؤدى إلى اضطرابات سلوكية متنوعة عند الأطفال قد تختلف فى الشدة من مجرد صورة الغضب لجذب الانتباه إلى السلوك المنحرف كالسرقة أو التخلف الدراسى أو السلوك العدوانى أو الخروج عن السلطة وتحديها.

أثر العامل الاقتصادى:

يلعب العامل الاقتصادى دورًا مهمًّا ويسهم إلى حد بعيد فى تكامل شخصية الأطفال، فالوضع الاقتصادى السيئ والفقر والاضطراب الاقتصادى وعدم الشعور بالأمن من شأنه أن يؤثر فى تماسك الأسرة وتكاملها ويعرض الصغار إلى مختلف الخبرات والتجارب القاسية والإحباط المتواصل الذى يدفعهم إلى الانحراف. والانحلال الخلقى من مظاهر تفكك الأسرة وقد يكون نتيجة للفقر والحرمان الذى قد يدفع الأبوين إلى سلوك الجريمة، والطفل الذى يعيش فى مثل هذا الجو قد يمتص هذا المثل السيئ عن والديه ويفقد الاحترام لنفسه وللقيم الأخلاقية عامة ويعيش مترددًا بين الظلم والقسوة والمهابة والخوف والعدوان؛ ومن ثم يندفع إلى التعبير عن كل ذلك فى مسالك غير مرغوبة اجتماعيًّا.

ولازدحام المسكن أثره على جوانب الحياة الإنسانية فإنه فضلا عن إضراره بالنسبة للبدن فإن له أضرارًا أخرى تتعلق بالحياة النفسية الداخلية والسلوك الاجتماعى للفرد.

والصغار أكثر تأثيرًا بمثل هذه الحياة التى تعرقل نموهم النفسى وتؤدى إلى اضطراب الشخصية التى تتمثل فى مظاهر عدم النضج وتأخر الاستقلال والاستجابات الصحية المضادة للمجتمع والثورة لأقل الأسباب والتجارب الجنسية المبكرة، فالأسرة التى يعيش جميع أفرادها على اختلاف أعمارهم إناثًا وذكورًا فى حجرة واحدة، هذه الأسرة لا تستطيع أن تمنع أطفالها من الاطلاع المبكر

على العلاقات الجنسية فتشغل أذهانهم بها دون فهم لحقيقتها وتدفعهم إلى الممارسة المبكرة لألوان مختلفة جنسية ونفسية تؤثر فى سلوكهم مستقبلا.

٣ - أهمية الاستقلال والاستقرار النفسى:

ليس النمو الاجتماعى للطفل مجرد ثمرة لخبراته مع الآخرين بل لا بد من تمهيد الطريق له بإشباع حاجاته الأخرى وخاصة حاجته للأمن والاستقرار، فالأم السمحة العطوفة المتزنة الثابتة فى معاملتها للطفل تضع الأسس التى يقوم عليها أمن طفلها وهى نفس الأسس التى يبنى عليها استقلاله. ففى السنوات الثلاثة الأولى من عمر الطفل تكون الأم هى الملبى لحاجاته الأساسية، فضلا عن أنها تلعب دورا كبيرا فى ملاءمته لحياة الواقع بإشباع بعض رغباته دون البعض الآخر، وفى كنف محبتها الآمن يستطيع الطفل أن يؤكد استقلاله إذ هى التى يقلدها وهى التى يشعر أنه جزء لا ينفصل عنها، وهى فى نفس الوقت الشخص الذى يعارضه الطفل بين وقت لآخر.

فإذا كانت علاقة الطفل بأمه غير مشوبة بالقلق، وإذا كانت تقبله لقيم أسرته سليمًا فإن استقلاله لنفسه ومعارضة رغباته سوف يكونان من العوامل المهمة فى نمو شخصيته وقدرته فيما بعد على تعلم وتكوين قيم خاصة به، وقد بين العالم "فالنتين" أهمية المرحلة التى سماها "مرحلة الإيحاء العكسى" التى تظهر عادة حول الثانية والثالثة من عمر الطفل فى تكوين الخلق فيما بعد. وهذه النزعة إلى المعارضة قد تتخذ شكلًا متطرفًا إذا كان الأبوين مسرفين فى التسامح أو غير ثابتين فى معاملتهما لطفلهما أو إذا كانا مفرطين فى الصرامة والتحكم. وقد يثير ذلك فى الطفل روح التمرد أو قد يؤدى أسلوب الكبح هذا إلى جعل أطفالهم جبناء أو نكرات.

وبالعكس فى الأسرة المستقرة فإن الأطفال ينالون قدرًا من الأمن والاستقلال يكفى لإشباع حاجاتهم ويكفى لنموهم الذهنى والانفعالى السوى. ولكن الكثيرين من الآباء فى حاجة إلى التوجيه والخبرة فى كيفية معاملة ثورات الغضب بالعصيان

والخلاف ورفض الطعام وما يشابه ذلك من الأمور التى تحدث كمظاهر طبيعية للمعارضة والتوتر المتصلين بالنمو. والآباء فى حاجة لأن يدركوا كذلك أن الكثير من عدم تنفيذ الأطفال للأوامر إنما هو مثلا نسيان بسيط أو عدم قدرة من جانب الطفل على تأخير استجابة معينة، وإن بعض ما يبدو منهم من أنانية أو خشونة أو سوء سلوك ليس إلا مجرد مظهر من مظاهر النمو أو علامة من علامات الفجاجة المعتادة.

وهذا لا يعنى أبدا أن الآباء ملزمون بتقبل فعلى لهذا السلوك والتماس العذر لهم ولكن من واجبهم أن يتعلموا كيف يمكنهم الاستجابة بشكل ملائم لهذا السلوك وبشكل يلائم احتياجات الطفل بدلا من أن تكون استجابتهم مجرد وسيلة لإراحة أنفسهم أو التنفيس عن غضبهم.

التطرف فى معاملة الطفل:

لا شك أن القسوة والتربية الصارمة تؤديان إلى خلق ضمير أرعن وتولد الكراهية للسلطة وكل من يمثلها وتجعل الطفل يقف من المجتمع عامة موقفا عدائيا أو يستسلم أو يرى الخلاص فى تملق الكبار أو الخضوع، أو تميتان فى نفسه الثقة بالنفس وتقبل روح المبادأة وتجعلانه يتحاشى القيام بأى عمل بدافع من نفسه.

وليس التراخى فى معاملة الصغار بأقل ضررا من القسوة فقد ثبت أن الطفل الذى ينشأ على تراخ وتهاون يبدو لديه من اضطرابات الشخصية والسلوك اللاسوى ما تبدو على الطفل الذى نشأ على القسوة والتزمت فى المعاملة.

ومن أشد الأمور خطرا على الطفل التقلب فى المعاملة بين اللين والشدة فيثاب على عمل مرة ويعاقب على نفس العمل مرة أخرى، يجاب إلى طلبه مرة ويحرم منه أخرى دون سبب مقبول، والتقلب فى المعاملة يجعل الطفل فى حالة من القلق والحيرة وتهتز ثقته بوالديه وقد يدفعه إلى الكذب والنفاق.

والإكثار من التخويف له آثاره النفسية الخطيرة الأثر وقد ينعكس الخوف المكبوت فى سن مبكرة على حياة الطفل عندما يكبر فيخشى الناس أو لا يرضى أبدا عملا يعمله ويصبح دائم القلق.

والإسراف فى التدليل له عواقب متعددة منها الشعور بالنقص وفقد الثقة بالنفس وقتل روح الاستقلال وتحمل المسئولية. ويجب التفرقة بين التدليل والعطف، ففى العطف أخذ وعطاء أما فى التدليل فالطفل يأخذ دون أن يعطى، والعطف ألزم ما يجب أن يحفظ به الطفل فهو الموازن الطبيعى الذى يشعر به الصغير حيال الكبير وهو شرط الشعور بالأمن الذى يحتاج له، ولكى نعطف على الطفل ونحبه بالرغم مما نراه من عيوبه يتعين علينا أن نفهمه فمعرفة الطفل شرط ضرورى لتربيته، غير أننا كثيرا ما ننظر إليه بأعيننا نحن لا بمنظاره هو فنحاسبه كما لو كان كبيرا، ونفرض عليه أوامر لا يفهمها أو يرى فيها نوعا من التعنت. والواجب أن يحل التفاهم أو الفهم والإقناع محل الأمر والنهى وأن نفرض عليه الحرمان إذا اضطررنا على درجات وفى رفق حتى لا يلجأ الطفل الضعيف إلى الكبت أو الجنوح باعتبارهما الوسيلة لحل الصراع الذى يخلفه الحرمان.

فى ضوء كل هذه العوامل يمكن أن نفسر أسباب الظواهر النفسية المتعددة وبعض مظاهر الانحراف التى تصادفنا فى بعض الأفراد، كالطفل المدلل والطفل الميال للعدوان والطفل الخجول والطفل المغرور والمنطوى والجانح فى أى صورة من صور الانحراف، كما يمكننا أن نفسر عوامل تكوين الطفل السوى والطفل الناجح والطفل الطبيعى فى تصرفاته وسلوكه والطفل الممتاز فى خلقه والمعتدل فى طباعه وهكذا.

ولا يقتصر أثر التربية الأسرية على شخصية الفرد فى طفولته كطفل بل تؤثر فى حياته كتلميذ أو صبى فى مصنع وفى حياته كشاب فتى أو فتاة، وفى أسلوب حياته كزوج أو زوجة وفى اتجاهاته فى العمل واتصالاته الاجتماعية ومدى تقبله لدوره فى الحياة كرجل أو امرأة.

كل هذا يؤكد لنا أن من أقوى دواعى الصحة النفسية فى حياة الأسرة هو إعداد الآباء للأبوة وهذا الإعداد يبدأ فى طفولة الأب، فالبنوة الطيبة تؤدى إلى أبوة طيبة فعلينا إذن أن نذكر ونحن ننشئ أطفالنا أنهم سيكونون فى المستقبل آباء يتصفون بالاتزان والطمأنينة وبروح الحرية والإيجابية والشعور بالمسئولية والرغبة فى التضحية مع الثقة بالنفس والاعتزاز بالذات إذا أردنا لهم ذلك. ولهذا يتطلب الإعداد للأبوة التبصير بمعناها وواجباتها ومتعها وتكوين المهارات والعادات الأساسية لها.

ولسنا بمعرض التحدث بالتفصيل لبيان أساليب تحقيق هذه النواحى ولكنا نقر أن الإعداد للأبوة يبدأ من أول الحياة ويسير حتى يكبر الأولاد ويظل متجددا مكيفًا متطورًا.

وإذا كان الإعداد للأبوة أمرا ضروريا فالإعداد للحياة الزوجية أمر على جانب كبير من الأهمية، والحياة الزوجية نفسها ليست أمرًا ثابتا بل هى تتطور فى مفهومها مع تطور الزمن كما تختلف من بيئة إلى أخرى، معنى هذا أن مفهوم الزوجية لابد أن يكون مفهوما ثابتا متطورا ولابد أن يدرب عليه الشباب لحياة زوجية متطورة وإلا فقدت اتزانها إذا لم تساير التطور المحيط بها، وكثيرا ما تنشأ مشكلات فى الأسرة لأن الأولاد يريدون أن يعيشوا فى نطاق القرن العشرين وأما الوالدن فيريدان لهما الحياة فى نطاق القرن المنصرم.

ومشكلات أخرى سببها ضيق نظرة أحد الزوجين لتلك الحياة الزوجية واتساع نظرة الآخر لها، فالذى نريده وندعو إليه هو إعداد للحياة الزوجية يبدأ بالتنشئة الأولى ويسير حتى آخر الحياة. فهو إعداد متجدد وتعلم مستمر وتكيف متطور يتطلب إعدادًا وتدريبًا فى المدرسة للجيل الناشئ وتثقيفا للآباء والأمهات الذين لم تتح لهم تلك الفرصة فى المدرسة.

٤ - أثر المجتمع فى تنشئة الطفل:

إن الأسرة بعناصرها الأساسية من أب وأم وإخوة وأخوات وأقارب تعد كما رأينا عاملًا مهمًّا فى تربية الطفل ولكنها مع ما لها من أهمية عامل واحد من عوامل متعددة كثيرة فى المجتمع تؤثر فى نمو الطفل وتربيته فالطفل يخرج فى حياته عن نطاق أسرته فى لعبه وفى معاملاته المختلفة بتواجده خارج الأسرة فيجد عالما فيه أخذ وعطاء، ويشعر فى قدرة من قدرات نموه بالحاجة إلى التحرر من القيود الخاصة بالطفولة فى نطاق الأسرة، ويميل إلى بناء علاقات ذات معنى مع أشخاص وجماعات جدد – كل هذا يؤدى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى اتصال الطفل بالجماعات المختلفة ويكون لكل جماعة منها تأثيرها فى نموه وهو تأثير يجعله يمر بخبرات كثيرة متنوعة ويساعده على تكوين روابط وعلاقات اجتماعية مختلفة.

والأمثلة كثيرة والصحة تبين أثر المجتمع فى حياة أبنائه: كاختلاف القيم والعادات والتقاليد التى يدين بها أبناء الغرب والشرق، فكل مجتمع ينشئ أبناءه على قيم وتقاليد تختلف عن غيرها من المجتمعات، بل إن المعايير تختلف من بلد لآخر وما يعتبر سلوكًا مرضيًّا فى بلد قد يعتبر سلوكًا شاذًا فى بلد آخر.

والواقع أن ثقافة المجتمع وعاداته وتقاليده والميزات الأساسية التى يتعرض لها الفرد فيه هى التى تشكل شخصية وأنماط سلوكه وعاداته ونظرته إلى الحياة وانفعالاته وقيمه الاجتماعية والخلقية وتفكيره، أو بعبارة أخرى تؤثر فيه منذ ولادته فتحيله من مجرد إمكانية إلى حقيقة واقعية، أى شخصية تتصف بالصفات الاجتماعية الإنسانية لها القدرة على التفاعل فى المحيط الاجتماعى الذى يحتوى وتتوافق معه وتتكيف بحسب ظروفه ومطالبه أو تنحرف نتيجة الخبرات الخاصة التى تمر بها فيقل توافقها ويضعف تكيفها.

معنى هذا أن المجتمع بما يحتوى من قيم وعادات ونظم اجتماعية وعلاقات إنسانية ومهارات وآراء وأفكار هى البوتقة التى ينصهر فيها ذلك الكائن الإنسانى

الناشئ، فينمو تدريجيًّا وينطبع خطوة خطوة بالطباع التى يتصف بها الراشد فيصير فى الهند بوذيًّا يقدس البقر ويضحى بحياته فى مقاومة آكلى لحمه، أو يصير فى أمريكا متعصبًا ضد الملونين من حمر وصفر وسود، أو يقدس الأجداد ويؤله الملوك كما فى اليابان وهكذا.

وليس فى طبيعة التكوين البيولوجى للطفل الهندى أو الطفل الأمريكى أو الطفل اليابانى ما يمكننا من تفسير هذه الاتجاهات والأنماط السلوكية، بل نستطيع فى داخل المجتمع الواحد أن نتبين اختلافات فى سمات الشخصية تتمشى مع اختلافات فى بعض العوامل الثقافية التى تحيط بقطاعات معينة من أفراد المجتمع، فأهل الريف المصرى مثلا كانوا يتصفون بالتواكل بشكل بارز إذا قورنوا بسكان المدن، وأهل الصعيد يشيع فيهم عادة الأخذ بالثأر بشكل ليس له مثيل سواء من ناحية الأسلوب أو الشدة أو مدى الانتشار فى غيره من أجزاء المجتمع المصرى، وهكذا كل هذا يؤكد دور المجتمع بمؤسساته وتقاليده وقيمه وعاداته فى تطبيع الطفل وبناء شخصيته وإكسابها طابعها المميز.

ولا شك أن أول الجماعات التى يتأثر بها الطفل التى تلى المنزل فى ترتيب الأهمية هى المدرسة.

دور المدرسة كمؤسسة اجتماعية:

المدرسة هى المؤسسة التى أنشأها المجتمع لإعداد أبنائه للحياة وتكوينهم خلقيًّا واجتماعيًّا وتوجيههم مهنيًّا إلى نوع العمل الذى يتناسب مع قدراتهم ويفى بحاجات المجتمع، هى فى الواقع مؤسسة رأى المجتمع ضرورة إيجادها لمواصلة عملية التربية التى بدأها المنزل. فالطفل يظل مرتبطًا بأسرته معظم سنى حياته، ولكنه يتدرج فى النظام النفسى من دائرة الأسرة إلى دوائر تتسع بالتدريج بتقدم حياته، وتعتبر المدرسة الدائرة التى تلى دائرة المنزل فى الأهمية، فالطفل عندما يخرج من محيط الأسرة إلى المدرسة يجد فيها ميدانًا أوسع لنشاطه وعلاقاته وإشباع

حاجاته وكسب مهارات جديدة. ويتأثر الطفل بالمدرسة وما تحدثه من تشكيل لشخصيته فى حدود الإطار العام الذى تكون فى المنزل وتتمم المدرسة عمل المنزل فى تنمية شخصية الطفل وتطويرها.

ويتوقف نجاح المدرسة فى وظيفتها على عوامل كثيرة بعضها يتعلق بالطفل نفسه كطبيعة تكوينه واستعداداته وذكائه، وبعضها يتعلق بالظروف المنزلية ومدى التعاون مع المدرسة، وبعضها يتعلق بالمدرسة نفسها من حيث الجو المدرسى السائد وطريقة التدريس وتعامل التلميذ مع زملائه ومدرسيه ومدى تعوقه أو تخلفه وهكذا.

وللمدرسة أثرها فى تنمية الميول والقدرات وتربية الجسم والعقل وتكوين الطباع والخلق، ولا يمكننا أن ننكر أثر المدرس والمدرسة كلها فى تطوير الشخصية وتحديد مستقبل الطفل وفى تعلم العادات والاتجاهات والقيم السليمة وفى تعلم دوره فى الحياه مستقبلًا، والإنسان ولا شك هو جماع ما تعلمه.

وقياسًا على ذلك يمكن أن ندرك أهمية المؤسسات الخاصة برعاية الأطفال ودور الحضانة ودور الرعاية الاجتماعية للأحداث ودور تربية الشباب وغيرها... ولا تقل عنها أهمية فى تشكيل أسلوب حياة الطفل ومدى نجاحه أو فشله فى حياته المستقبلة المصنع أو مركز التدريب المهنى.

دور وسائل الإعلام:

لا زالت السينما والمسرح والتليفزيون والصحافة والكتب تعتبر إلى حد ما وسائل للتسلية والترفيه وخاصة عند الأطفال والشباب أكثر منها وسائل للثقافة والتربية الأخلاقية والاجتماعية. هذه الوسائل بحكم طبيعتها ومادتها وطرق عرضها تعتبر من المثيرات الحسية والعقلية والانفعالية العنيفة للصغير الناشئ، ولا شك أن لها أهميتها فى التأثير على الصغار سواء من الناحية الوقائية أو العلاجية؛ مما دفع الدول إلى الاهتمام بتوجيهها توجيها قانونيًّا وثقافيًّا من الرقابة العامة لكى

يتجنب المجتمع أضرارها على النشء، وحتى تستغل أحسن استغلال ممكن لتوجيه الأطفال والشباب.

تلك هى بعض العوامل التى لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بتنشئة الطفل، والواقع أنه لا يمكننا الفصل بين العوامل المختلفة المؤثرة فى تربية الطفل ورعاية، ونحن كمصلحين اجتماعيين يجب ألا نوجه اهتمامنا إلى ناحية من هذه النواحى على حساب ناحية أخرى، بل يجب أن نوجه جهودنا إلى كل النواحى على السواء.

لا بد بجانب العناية برفع مستوى المعيشة ومعاونة الأطفال والشباب على التوجيه المهنى وكسب العيش، أن نعتنى بأحوالهم الصحية ودراسة مشكلاتهم النفسية، وفى نفس الوقت نعمل على النهوض بالمجتمع بشكل عام يرفع مستوى التعليم والاهتمام بالتشريعات الاجتماعية والتقريب بين طبقات الشعب، ومن نعم الله علينا أن صحبت ثورتنا السياسية ثورة اجتماعية تبلورت اتجاهاتها الاشتراكية فى القوانين الاشتراكية التى صدرت فى١٩٦١، وكان الهدف منها إقامة مجتمع تذوب فيه الفوارق بين الطبقات عن طريق تكافؤ الفرص حتى يستطيع الفرد أن يجد مكانًا لنفسه على أساس كفايته وقدرته، وجاء الميثاق فأكد أن من واجب الأجيال العاملة أن توفر للطفولة – صانعة المستقبل – كل ما يمكن لها من تحمل مسئولية القيادة بنجاح، وحدد الميثاق هذه المسئولية قبل الأطفال بقوله: "إن تحرر الطاقات الخلاقة لأى شعب من شعوب يرتبط بالتاريخ ويرتبط بالطبقية ويرتبط بالتطورات السائدة والمؤثرة فى العالم الذى نعيش فيه... " .

ومعنى هذا أن دليلنا ونحن نوجه نمو أطفالنا ونرسم خطوات تربيتهم يجب أن تكون حاجات المجتمع ومقتضيات العصر والأهداف القومية التى سيواجهها الطفل بعد أن يصبح راشدًا ومواطنًا، أى أن نمو الفرد بالتربية يجب أن يتجه اتجاها اجتماعيًّا وقوميًّا أولًا وآخرًا وبذلك يلتقى الفرد والجماعة ويقوم كل منهما بوظيفته فى سبيل سعادة الفرد والمجتمع.

الحياة العائلية ودورها السيكولوجى:

وليس هناك اختلاف حول ضرورة استعداد الأبوين لتوفير العناية الجسمية والتغذية الصحية لأطفالهم، أما أهمية الحياة العائلية المريحة والاستقرار النفسى للنمو الانفعالى السوى عند الطفل فهو ما لا يدركه الكثيرون، ففى المنزل يصادف الطفل الخبرات الأولية التى تحدد ما إذا كان سيكتسب الشعور بالأمن وبأنه محبوب ومقبول أم لا، وفيه أيضًا يواجه المواقف التى تحدد مدى إحساسه بكفاية الشخصية.

وتظهر أهمية الحياة العائلية فى أول سنين من حياة الطفل بالنسبة لصحته النفسية من النتيجة التى أمكن الحصول عليها عند دراسة الأطفال الذين تتوالى بعض مؤسسات رعاية الطفولة العناية بهم، فلا شك أن ملجأ الأيتام الذى تديره حاضنات ومشرفون مدربون يفوق فى العناية من حيث المسكن والطعام والكساء والوقاية – كثيرًا من المنازل الخاصة، وفيه نستطيع أن تتأكد أن الأطفال يسيرون سيرًا منتظمًا فى أوجه النشاط المتعلقة بالعناية الصحية والنمو. ورغم هذا فإن أطباء الصحة النفسية وغيرهم قد وجدوا فى عدد كبير من الدراسات التى قاموا بها أن العناية التى تقدمها المؤسسات – مهما تكن عناية منظمة – لا تكفى إشباع الحاجات السيكولوجية سواء عند الأطفال الصغار أو الكبار.

ونضرب مثالاً على ذلك من نتائج بحث أجرى فى إحدى المؤسسات على مجموعة من الأطفال فى سن الرضاعة كانوا يتناولون طعامهم حسب مواعيد منظمة، وكانت ملابسهم المبتلة تغير لهم أولًا بأول على مناضد خاصة، فضلًا عن العناية التامة بملابسهم ونظافتها، وكانوا يتركون فيما عدا هذا لأنفسهم حتى لو بكوا. وقد سجل المشرفون على هذا البحث فى تقاريرهم عن نتيجة الملاحظة الدقيقة التى قاموا بها أن هؤلاء الأطفال لم يكونوا يبتسمون أو يستجيبون استجابة اجتماعية بنفس السرعة التى كان يفعل بها ذلك أطفال ربوا فى منازلهم الخاصة، فأدخل

تعديل جعل الحاضنات يمرون على الأطفال فى أوقات منظمة يداعبونهم ويعانقونهم ويحنون عليهم، فكانت النتيجة أنهم بعد هذه العناية الخاصة لعدة أيام لم يصبحوا يبتسمون فقط بل أيضًا زاد وزنهم عن المعتاد.

وقد سجلت دراسة أخرى أجريت حديثا على مجموعتين من الأطفال نتائج عناية المؤسسات بالأطفال، وكانت المجموعة الأولى مؤلفة من أطفال ومراهقين ربوا فى مؤسسات للأيتام خلال السنوات الثلاثة الأولى من أعمارهم، وتألفت المجموعة الثانية من أطفال من نفس الطبقة الاجتماعية ولكنهم ربوا مع عائلات فى منازل تبنتهم. أما أطفال مؤسسة الأيتام فقد تمتعوا بعناية أكبر فيما يختص بحاجاتهم الجسيمة، ونظم غذاؤهم تنظيما "علميا" وعنى بمسائل التهوية الاستحمام واللعب والراحة، كما اتخذت الحيطة الكاملة ضد مصادر العدوى، إلا أن أحدا منهم لم يكن يتمتع بعطف مستمر من أحد من الكبار أو باهتمامهم، بل كان الاهتمام الذى يلقاه كل طفل لا يزيد عن أن يكون اهتمامًا ميكانيكيا. وقد أدى تتابع الحاضنات على عدد كبير من الأطفال إلى منع قيام علاقة عطف مستمر بين طفل معين وأية حاضنة.

أما الأطفال الذين ربوا فى منازل التبنى فلم يكونوا يتمتعون بمزايا الإشراف المنظم على التغذية والصحة الجسمية، إلا أن ظروفهم المعيشية سمحت لهم بقيام علاقات شخصية بينهم وبين عدد محدود على الأقل من الأفراد الذين كانوا يحملونهم ويلعبون معهم، ويوفرون لهم فوق ذلك كثيرا من ألوان العطف والرعاية والإشباع النفسى، وقد تسببت عدم قدرة أطفال مجموعة مؤسسة الأيتام على تكوين علاقات اجتماعية سليمة مع الناس فى قيام مشكلات شخصية خطيرة عند عدد كبير منهم، فأصبحوا يرون العالم مكانا باردا معاديا، وأظهروا سلوكا عدوانيا محرفا، وقد أثبتت المقاييس النفسية (ومنها اختبار رورشاخ) أن بعض هؤلاء الأطفال أصبحوا يتميزون بخصائص قريبة إلى حد كبير من نماذج الشخصية التى نلاحظها لدى الأطفال الذين أصيبوا بإصابات شديدة فى الرأس عند الصغر.

وبالجملة فإن عدم توفر العطف والقبول والرضا فى الطفولة المبكرة أدى بالصحة النفسية إلى نفس التأثير السيئ الذى تحدثه الإصابة الشديدة فى الرأس. هذا على حين أن أطفال مجموعة منازل التبنى لم تظهر بينهم مثل هذه الانحرافات فى السلوك، ولم تحدث عند معظمهم أية مشكلات فى الشخصية وإن تكن قد ظهرت عند بعضهم مشكلات شائعة عند أية مجموعة من الشباب فى أثناء النمو.

وعلى العموم فإنه لم تظهر من بينهم شخصيات تستعصى على العلاج كتلك التى وجدت عند عدد من أطفال مجموعة مؤسسة الأيتام، الذين كانت مشكلاتهم من النوع الذى لا يعالج إلا فى المستشفيات أو العيادات النفسية.

فمن الظاهر إذن أن النمو السوى للرضع والأطفال الصغار يعتمد إلى حد كبير على الاتصال الجسمى بالأفراد الذين يهتمون براحتهم اتصالًا مشبعًا بالعطف، وهذه الحاجة تؤكد الأثر الكبير للأم والأب العطوفين، فى نمو الطفل.

وقد وجد أحد الباحثين، فى دراسة عن العلاقة بين الصحة النفسية وموقف عائلات من بيئات مختلفة من الأطفال، أن الأطفال الذين نشئوا فى منازل يرحب فيها الأبوان بأصدقاء أطفالهم ويشاركونهم فى مرحهم وفى ألعابهم ومشكلاتهم ونواحى تسليتهم فى خارج المنزل وداخله - كانوا على درجة طيبة من التكيف الشخصى وكانوا ناجحين اجتماعيًا، وقد وصفت الدراسة الأطفال الذين نشئوا فى مثل هذه المنازل بأنهم يتوفر لديهم "كفاية شخصية" وإحساس "بالمسئولية الشخصية" فى علاقاتهم بزملائهم.

يقول صاحب الدراسة: "أهم وظيفة للحياة العائلية الحديثة وظيفة نفسية فى طبيعتها حيث إنها تواجه مواجهة مباشرة أكثر من أى ميدان آخر فى الحياة، بعض المطالب الإنسانية الأساسية، وفيها تتوافر الإقامة والتنمية والتوجيه التى تحدد إلى حد كبير ما إذا كان الطفل فردا حسن التكيف من الوجهة الشخصية ومنتجًا من الوجهة الاجتماعية أو لا.

وقد أكد كاتب آخر وجهة النظر هذه، فقرر أن لكل فرد نواة مركزية انفعالية متميزة هى محور شخصيته التى تكونت من مجموعة من المؤثرات التى تتميز بالدينامية والخبرات التى قابلها فى طفولته. هذه النواة تلون نمو الفرد وتكون مفتاح فهم مشكلاته الانفعالية سواء كانت يسيرة عادية أو عصابية خطيرة. وهى تحدد المسائل التى يمكن أن تجرحه، وتحدد الظروف التى قد تسبب انهياره. وهكذا فإنه لا يمكن فهم المشكلات الانفعالية عند فرد ما فهما سليما إلا إذا نظرنا إلى نواته المركزية فى علاقتها بالمنزل والعائلة اللذين تربى فيهما.

حاجات الطفل الرضيع:

لا شك أن للطفل حاجاته السيكولوجية التى ينبغى أن تشبع إذا كان له أن يتمتع بصحة نفسية سليمة. وكما أن الطعام والظروف الصحية المناسبة ضرورية للصحة الجسمية السليمة والنمو السوى فلا نزاع فى أهمية المخبرات السيكولوجية الملائمة للصحة النفسية، وإذا استطاعت هذه الخبرات أن تبتعد عن توترات القلق وتوفرالشعور بالأمان، فإن الأطفال سيتمتعون ولا ريب بالإشباع العضوى والنفسى.

ومنذ سنين عديدة مضت حدث اختلاف حول مسألة العناية بالرضيع، حين أعلن أحد علماء النفس أن الرضع يمكن أن ينموا لو منعنا عنهم تقبيل وتدليل الأمهات اللائى يحبونهم بلا فطنة أو تعقل. وقال هذا العالم إنه يمكن مساعدة الطفل فى نموه على الاعتماد على النفس وغير ذلك من الصفات المرغوبة إذا ترك لينمو بدون وجود مظاهر العطف الزائد التى اعتبرها ذلك العالم من التأثيرات المعوقة لنمو الطفل فى هذا الاتجاه، وظهر المذهب باعتباره اتجاها علميا فى تربية الطفل ولقى تقبلا ملحوظا.

إلا أن كثيرا من الدراسات الحديثة والملاحظات تقول إن الرأى النظرى لهذا العالم ليس صحيحا عمليا. ويتفق دارسو نمو الطفل اليوم على أن حب الأم

والعطف الجسمى ضروريان للصحة النفسية والنمو السليم للشخصية عند الرضيع، فهو يحتاج إلى دفء الأم أو المرضعة واتصالها اللمسى الوثيق به بما لا يقل أهمية عن التغذية الجسمية التى يستخلصها من الرضاعة، ومن المعتقد أن مثل هذه الخبرات تزود الرضيع بالشعور بالأمن وبأنه محمى من الأذى. يقول كاتب مشهور: "من هذه الجهة فإن الإنسان الرضيع يشبه صغار الثدييات التى تنمو إذا أشرف عليها وأرضعت وعونقت، وتستقى ما تحتاج إليه من الأمن الانفعالى من نشاط الفم فى الامتصاص ومن الاتصال الوثيق بالأم".

وقد انتهى أحد أطباء الأمراض النفسية للأطفال بعد إجراء دراسات مستفيضة على الرضع إلى أن الأم والرضيع – حتى بعد الولادة – يكونان وحدة من الوجهة النفسية، وأن العلاقة الجسمية الوثيقة ضرورية للنمو الفسيولوجى. وقد وجد هذا الطبيب أن الأمومة الوثيقة الاتصال بالطفل ضرورية لإشباع حاجات الرضيع الأساسية مثل الحاجة إلى الأوكسجين والرضاعة والنوم والإخراج. وقد استنتج الباحث أن الملاحظة تؤدى بالجهاز العصبى عند الطفل إلى الحركة والنمو السويين، وأن القدرة على تكوين العلاقات الانفعالية الناضجة هى نتيجة مباشرة للملاعبة وحب الأم، وأن خبرات مثل الرضاعة والهز والغناء تشبع أعمق المطالب السيكلوجية عند الرضيع.

وقد وجد فى هذه الدراسة أن الأطفال الذين مرت عليهم أكثر من واحدة قامت بمهمة الأم أصبحوا أقل من غيرهم من ناحية الاستعداد الانفعالى، وخاصة بالنسبة لسلوك العطف عليهم. ومهما يكن الأمر فإن نقاد هذا الرأى أكدوا أهمية العوامل البنائية والموقف الحضارى كله، الذى يخبره الرضيع وطفل مرحلة ما بعد الرضاعة، بالنسبة لتكوين الشخصية.

ولما كان الرضيع البشرى يحتاج إلى دفء القبول وإلى الاستجابات الودودة معه سواء ما يكون منها ذا طبيعة جسمية أم سيكولوجية، فإن المنزل هو الذى يحدد

إحساسه بالأمان. كذلك فإن مركز أسرة الرضيع مركز دقيق، فهى إما أن تساعد على شعوره بقيمته الشخصية أو أن تهدد هذا الشعور، فإذا كانت ظروف منزل الرضيع من النوع الذى يوفر الصحة النفسية ويعينه على الوصول إلى درجة طيبة من التكيف، فإنه يكون فى طريقه إلى النمو الملائم، وبالعكس فإذا كان المنزل لا يوفر للطفل الاستجابات الودية المناسبة والإحساس بالأمان فى مركزه، فإنه ولا شك سيلجأ إلى العمليات الدفاعية الهروبية غير مقبولة اجتماعيًا؛ حتى يستطيع أن يتغلب على ما افتقده من شعور بالأمن.

إن الطفل الرضيع يكتسب – فى دائرة المنزل نفسه – الشعور بالقبول الشخصى الذى يضع حجر الأساس لتصرفه السليم تجاه الأشخاص الآخرين، كما يكتسب السلوك الاجتماعى الذى يضمن تعاونه مع بيئة أكبر خارج المنزل. والخبرة العائلية هى التى تحدد ما إذا كان الطفل سيتطور إلى بالغ اجتماعيًا أم أنه سيظل على درجة من عدم النضج الطفلية تمنع تكامله مع المجتمع الأكبر الذى هو عضو منه. إن المنزل الملائم يضع الأساس للنمو الاجتماعى، والنمو الاجتماعى أساس لتحقيق الصحة النفسية.

ولا شك أن الجو المنزلى بما يتضمن من علاقات بين الزوج والزوجين وبين كل منهما والأطفال له أثر مباشر على شخصية الطفل. وكم من دراسات أجريت ودلت على أن الأغلبية العظمى من الأطفال الجانحين يأتون من منازل محطمة.

التوتر بين الأبوين

قد استطاعت إحدى الباحثات فى دراسة عن العلاقة بين تكيف الشخصية عند الأطفال والعلاقات الزوجية بين الأبوين – أن تثبت وجود ظواهر من حياة المنزل تصاحب التوترات الانفعالية عند الأطفال الصغار.

وقد وجدت أن من عوامل تحديد حالة الصحة النفسية عند الأطفال علاقات السيطرة والخضوع والتوافق الجنسى لدى الوالدين. وقد أظهرت العوامل التى تقوم فى علاقات الأبوين وثبت أنها تؤثر فى تكيف الطفل أن التوتر يكون حول:

١- أمور الجنس.

٢- مشكلات السيطرة والخضوع.

٣- قلة مبالاة كل منهما بالآخر.

٤- عدم التعاون والخلاف بينهما حول تربية الطفل.

٥- العلاقات الزوجية الخاصة.

٦- مشكلات الصحة.

٧- عدم القدرة على التغلب على الاختلافات بين الزوجين والوصول إلى حلول يتفق عليها الجانبان.

٨- عدم توفر الحنان المتبادل.

٩- التوتر تجاه الأصدقاء والعمل والأقرباء.

وظهرت مثل هذه النتائج فى بحث آخر تناول تكيف الشخصية عند الأطفال بسبب تغير الأسباب المنزلية التى تؤدى إلى التوتر. فثبت أن الذين ربوا فى منازل تتصف بالشقاء العائلى أو السلوك الأبوى غير السليم – أقل من ناحيتى التكيف الشخصى من الأطفال الذين يأتون من منازل يتوفر فيها الثقة والحنان والصداقة. وقد أشار هذا البحث إلى أهمية العلاقات المنزلية التى تتسم بالتفاهم والاتفاق بالنسبة للصحة النفسية السليمة والنمو الاجتماعى.

وإذا كان جو المنزل متوترًا من جراء اختلاف الأبوين فإن الطفل عادة يكون حائرًا ما بين خضوعه للأب أو للأم. وفى بعض الحالات تصل قلة التعاون بين الأبوين إلى المسائل الحيوية الخاصة بتربية الأطفال تربية ناجحة. فقد يتعلم الطفل أن يستخدم أحد الأبوين ضد الآخر، وقد يستخدم أحد الأبوين الطفل بنفس الطريقة أو قد يمهل كلا الأبوين الطفل، وقد يكون كل منهما فى الأغلب فى حالة توتر انفعالى، وتكون رنة صوتهما حادة غاضبة، وطريقة كل منهما جافة. مثل هذا

السلوك من الأبوين يحدو إلى توتر انفعالى عند الطفل يتدخل فى نمو الشعور بالأمان وهو الضرورى للصحة النفسية.

أفكار خاطئة حول تربية الطفل:

يوجد لدى كثير من الآباء أفكار خاطئة حول تعليم الطفل. فنجد الآباء فى بعض الحالات يستخدمون العقاب الجسمى إزاء سلوك غير مرغوب فيه فى حين يكونون هم أنفسهم السبب فى وجوده، وهذه المعاملة تزيد من شعور الطفل بعدم الأمان، وهو ما يكون لذاته مسئولًا فى أحيان كثيرة عن السلوك الذى استخدم العقاب لإصلاحه. ويعتقد بعض الآباء أنه لا جدوى من محاولة تعليم الطفل؛ بسبب اعتقادهم أن بعض أشكال السلوك السيئ أشكال موروثة، وبهذا لا يمكن تعديلها، وبعضهم الآخر يتراجع من أول خطوة؛ لأنهم يعتبرون أن الطفل لا يمكن أن يتعلم قبل أن يستطيع الكلام، وغيرهم يلجئون إلى إغراء الأطفال بالنقود حتى يتصرفوا بطريقة معينة أو إلى التهديد بالسلطة الحاكمة (كالجندى أو الوالد)، طرق خطيرة غير سليمة فى معاملة الأطفال. وكثير من الآباء يعتقد أن الأطفال ولدوا خاطئين، أو أن حياة الطفل ما هى إلا إظهار لغرائز كريهة لا يمكن التحكم فيها والبعض الآخر منهم لا يحاول الاستماع إلى محاضرة أو قراءة كتاب أو طلب النصيحة من الآباء الناجحين، بل يخدعون أنفسهم بأن آباءهم أنفسهم نجحوا فى تربيتهم بدون أن يساعدهم فى هذا شىء من ذلك.

البيوت المحطمة والصحة النفسية:

كثيرًا ما تكون النتائج سيئة فى الحالات التى يفقد فيها أحد الأبوين بالموت أو السجن أو المرض.. إلخ، فيصاب الطفل بالقلق بسبب غياب هذا الوالد وبسبب رد الفعل الذى يجده عند الوالد الآخر، وفى بعض الحالات تكون نتيجة هذا الموقف أن يزداد اهتمام الوالد الآخر بالطفل، وينشأ بالتالى ارتباط غير مرغوب فيه بين الاثنين، كما أن انشغال الوالد الباقى قد يؤدى إلى ضعف القيادة المناسبة، ورغم هذا فليست

كل البيوت المحطمة تؤدى إلى أطفال غير متكيفين ولكنها تهيئ نسبة أكبر من غيرها من أمثال هؤلاء الأطفال، وقد يكون والد واحد فاهم متنور أفضل لتزويد الطفل بالأمان من والدين يعشيان معًا حياة لا انسجام فيها.

ويصحب الانفصال والطلاق فى معظم الحالات توتر انفعالى، إلى جانب ما يكون هناك عادة عراك واتهامات من الجانبين، غالبًا ما يدخل فيها موضوع الطفل، فيرى الأبوين يتشاجران، وكثيرًا ما يبكيان، فتؤدى مثل هذه المواقف إلى توتر الطفل الانفعالى، فإذا ما تم الانفصال أو الطلاق فإن الطفل يتنازعه بيتان وسلطتان، وقد تظهر عنده صراعات انفعالية خلال محاولته ألا يجعل أحدًا من الأصدقاء يعرف ما يدور فى الأسرة، فيحتمل أن يضطر إلى الكذب لستر علاقات الوالدين الحقيقية. وهكذا يؤثر الصراع الزوجى على حالة التكيف الانفعالى عند الأطفال، ويقف دون إشباع حاجاتهم الأساسية، ويمنع من اكتساب المهارات الاجتماعية اللازمة للصحة النفسية.

التربية الجنسية الخاطئة:

ومن أصعب المشكلات التى تواجه الآباء مشكلة تكوين اتجاهات وعادات جنسية سليمة عند الأطفال، وكثير من الآباء يحيطون الجنس بجو من الغموض والأسرار، حتى إن أطفالهم يندفعون إلى معرفة أموره من مصادر مريبة، فتكون النتيجة أن معظمهم لا يكونون على الإطلاق اتجاهات سوية تجاه أمور الجنس، فينبغى أن نشجع الأطفال على مناقشة أمور الجنس فى صراحة وبلا خجل، على أن نساعدهم على تنمية الإحساس بالحياء بشرط خلوه من مشاعر الخجل أو السرية. ولا شك أن الأطفال سيصبحون عاجلًا أو آجلًا تواقين لمعرفة "من أين يأتى الصغار"، فلا ينبغى أن نقابلهم بالزجر أو المراوغة بل بالطريقة التى تتناسب مع قدرة الأطفال على الفهم، وإلا فإن الأبوين يفقدان فرصة كان يمكن فيها أن يكونا فى عون الطفل.

العلاقات الطيبة بين الوالدين والطفل:

البيت الطيب هو الذى يجد الطفل فيه والدين يحب كل منهما الآخر، ويحبانه ويفهمان رغباته وقدراته وما يتطلع إليه. ويفعلان ما فى استطاعتهما لمساعدته على تحقيق هذه كلها فيحقق بالتالى التكيف الملائم.

هذا البيت يساعد الطفل على إشباع حاجاته سواء كانت جسمية متصلة بصحته البدنية أو حاجات نفسية كشعوره بالأمان وإحساسه بقيمته الشخصية. وعلاقة الوالدين الطيبة بالطفل تتطلب اشتراكهما فى أوجه متعددة من النشاط وتنمية الاهتمامات المشتركة تشجيعًا للطفل على العمل وعلى اعتماده على نفسه، وفوق ذلك فإن هذا النموذج من الوالدين يتعامل مع أطفاله على أساس النظر إلى النمو نظرة بعيدة المدى تشمل مستقبل الطفل ولا تقتصر على مجرد الاهتمام بما يحدث له فى الحاضر.

والآباء فى البيت الطيب يشاركون أطفالهم فى خبراتهم، وبذلك يكسبون ثقتهم واستعدادهم للتعاون معهم حين يظهرون اهتماما مخلصًا بشئونهم، وحين يناقش الآباء أحداث اليوم أو مشكلات الأسرة المادية مع أطفالهم فهم بذلك يضعون الأسس السليمة للروابط القوية المشتركة بينهم وبين أطفالهم، كذلك فإن شعور الطفل بالأمان بالقدر الذى سيصبح معه معتمدًا على نفسه، وبالمهارة التى تجعله يقدر المسئوليات الاجتماعية يعتمدان إلى حد كبير على تلك الروابط التى يكونها الوالد مع طفله منذ الصغر.

وفى بحث أجرى حديثًا وجد أن النساء اللاتى تمتعن بطفولة سعيدة أصبحن متكيفات اجتماعيًا، أصحاء نسبيًا من الناحية الجسمية، متبصرات فى حل مشكلاتهن، وراضيات عن دخلهن المادى بصرف النظر عن قيمته، وبمقارنة هذه المجموعة بنساء أخريات لم يتمتعن بالسعادة فى البيت كن أكثر تفاهمًا مع الناس وأقل ميلًا إلى الشعور بالنقص.

العلاقات غير السليمة بين الوالدين والطفل:

ينبغى أن تنمو العلاقة بين الوالدين والطفل بحيث تصبح علاقة مودة وعناية متبادلة، إلا أنه فى كثير من الحالات تكثر الخلافات والاحتكاك بين الوالدين والطفل؛ مما يترتب عليه تعطل نمو الصحة النفسية لدى الطفل أو انحرافها.

وسوء التكيف يرجع إلى سلوك الأبوين الخاطئ الذى يتضمن:

١- نبذ الطفل.

٢- إهماله.

٣- السيطرة عليه.

٤- الخضوع له.

٥- حماية الطفل المفرطة.

٦- إسقاط آمال الوالدين على الطفل.

٧- تفضيل طفل من أحد الجنسين.

٨- غيرة أحد الوالدين من الطفل.

وفى كل الحالات ينشأ ما يسمى بالطفل المشكل. ولعلاجه لا بد من فهم كل هذه الصور فهمًا صادقًا.

نبذ الطفل انفعاليًا:

يمكن أن نعرف النبذ بأنه سلوك ظاهر نحو فرد ما يجعله يعتقد أنه ليس بالمحبوب ولا بذى القيمة، وهو سلوك يهدد أمان الطفل ويتركه فريسة للشعور بالشك وبأنه وحيد. ونبذ الطفل يتخذ صورًا متخلفة منها:

١- تكرار الإشارة إلى نواحى النقص فيه.

٢- العقاب الشديد والاستجابات السلبية مثل: (الاحتقار- الاشمئزاز - السخرية - التأنيب المستمر - التهديد).

٣- النظام الصارم.

٤- هجر الطفل.

٥- التفرقة بينه وبين إخوته فى المعاملة.

٦- معايرة الطفل المستمرة ومقارنته بالأطفال الآخرين.

٧- تعمد القول أمام الطفل إنه غير مرغوب فيه.

والنبذ يجعل الطفل فى خوف من أن هؤلاء الذين يكونون عالمه لن يقفوا جانبه وأنهم يعادونه وعلى استعداد للتخلى عنه، فعالمه إذن عالم خطر لا يتسامح، يهدد أمنه وتقديره لذاته.

والنتيجة التى تتبع نبذ كثير من الآباء لأطفالهم أن ينمو لدى هؤلاء الآباء الإحساس بالذنب، وحتى يتجنبوا مواجهة هذا فإنهم يلقون اللوم لا شعوريًّا على وجود نقص مزعوم فى الطفل نفسه، وقد يأخذونه إلى طبيب يتبعه آخر بدون أن يكتشفوا العلة الحقيقية التى تختفى وراء الستار.

وقد يؤدى نبذ الأبوين إلى اضطرابات سلوكية متنوعة عند الأطفال، وهى تختلف فى الشدة ما بين مجرد صورة الغضب لجذب الانتباه إلى السلوك المنحرف كالسرقة أو التخلف الدراسى. وقد أجرى عدد من الباحثين دراسات على نبذ الوالدين للأطفال، دلت على أن الأطفال المنبوذين يغلب أن تظهر عليهم أعراض مثل السلوك العدوانى – العصيان فى المدرسة – الشعور الاضطهاد – التبرم من السلطة – الحساسية نحو جذب الانتباه – الارتياح إلى إقلاق راحة الأمهات – الكذب والسرقة.

والشعور بنبذ الوالدين يكون على أشده فى الطفولة الأولى، وله أضراره العاجلة واللاحقة على شعور الطفل بالأمان، فإذا لم يعوض الطفل عن هذا النبذ بمكافآت لها قيمتها التعويضية فإن الضرر الذى يصيب صحة الطفل النفسية غاليًا ما يستمر معه طوال حياته.

إهمال أو حرمان الطفل:

وليس من الضرورى أن يكون إهمال الوالدين للطفل دائمًا نتيجة أنه جاء إلى الحياة دون رغبتهما، فقد نجد من الآباء من لا يهتم بالإشراف على أطفاله أو العناية بهم والعطف عليهم، وقد يرجع ذلك إلى عدم قدرتهم على تعليم الطفل احترام السلطة واتباع القواعد الاجتماعية، وفى بعض الحالات يكون هذا نتيجة إلى موت أحد الوالدين أو الطلاق فلا يزود الآباء الطفل بالعناية الكافية، كأن يتركونه فى المنزل وحيدًا، أو قذرًا غير حسن المظهر أو لا يتناول طعامه بانتظام. مثل هذا الطفل يكون فى حاجة إلى العطف شغوفًا بالانضمام إلى نشاط الجماعات غير المرغوبة أو قد تستبد به الرغبة فى إرضاء الآخرين حتى يتنبهوا إليه، أو قد ينغمس فى التفكير فيما يهفو إليه فيبنى فى الخيال أحلام اليقظة.

فإذا كان الطفل المهمل يعيش فى الأحياء الموبوءة من المدن فإنه قد يلجأ أحيانًا إلى العدوان وتحدى السلطة، ولا يقبل اللوم على سلوكه الذى لا يتفق والقانون. ولا يكاد يحس بالذنب على ما يقترف من إثم وعلى رغم أنه لا يكون "شرسًا" عادة، فإنه يميل إلى الافتراء على من هم أضعف منه، وقد يتكرر أن يسرق من منزله أو من زملائه فى المدرسة، حتى إذا وصل إلى مرحلة المراهقة فإنه قد يصبح عضوًا فى عصابة منظمة أو أن يخالط قومًا لا ينظر إليهم نظرة الاحترام، فيكون بينهم نعم الصديق، مثل هذا الطفل لا بد أن يصير مجرمًا.

السيطرة على الطفل:

سيطرة الوالدين على الطفل مصدر آخر من مصادر سوء التكيف عند الأطفال، وقد كانت فلسفة التنشئة الاجتماعية والتربوية التى آمن بها الناس خلال سنوات طويلة تميل نحو التحكم الصارم، ولا زال البعض يعتقد أن وضع الطفل فى تنظيم محكم أمر ضرورى لنموه، ولكن الذى يحدث فى كثير من الأحيان أن الآباء يصبحون لسوء الحظ طغاة فى استخدام سلطتهم، ومن النادر أن يكون بين هؤلاء

من يعامل الأطفال باعتبارهم شخصيات لها أفكارها وعواطفها ومشاعرها، ويعاملونهم بفهم لهم واحترام.

والصرامة فى معاملة الأطفال قد تصبح أساسًا لتمردهم فيما بعد، بل إن إصرار الآباء المستمر على ما يسمى بحقهم فى طاعة الأطفال لهم يجعل الطفل لا يتمرد وحسب، بل ويتصف فى معظم الأحيان بالعناد المستمر.

وقد وجد فى دراسة تحليلية عن نتائج سيطرة الآباء، أجريت على ثمانية وعشرين طفلًا- أن هؤلاء الأطفال الذين يسيطر عليهم الآباء – بالقياس إلى الأطفال الذين لا يلقون إلا قليلًا من الإشراف – خاضعون خجولون، وكثيرًا ما يظهرون بمظهر مضطرب، كما أنهم يشعرون بالنقص وأنهم ليسوا أكفاء، وأحيانًا ما يتميز بعض هؤلاء الأطفال إلى حد ما بوجود روح عدائية كامنة لديهم يمكن أن تظهر بأشكال عدوانية إذا وصلوا إلى مرحلة المراهقة أو الرشد، وقد تبين من دارسة تحليلية أن الآباء يسيطرون على هؤلاء الأطفال حينما:

١- يصرون على الطاعة الكاملة.

٢- يشرفون على اختيار أوجه نشاطهم إشرافًا دقيقًا.

٣- يفرضون عليهم مثلهم.

٤- يتمادون فى الإشراف عليهم إلى حد كبير.

٥- يتمادون فى الخوف عليهم وحمايتهم من الأذى.

٦- يزداد قلقهم عليهم حتى بسبب أمور تافهة.

وهناك نماذج أخرى لسيطرة الوالدين غير المعاملة الصارمة والمغالاة فى الإشراف على الأطفال، فبعض الآباء مثلًا لا يقبلون أى تفاهم حول أنواع الطعام الذى يتناوله الأطفال ولا مواعيد تناول وجباتهم فيصاب الطفل بالقلق إلى حد كبير وقد يصبح قليل الشهية، فتتهمه أمه بأنه عنيد، ويصبح الطفل أكثر توترًا وعدائية.

كذلك فإن الآباء يقابلون مص الأصابع وقضم الأظافر والتبول فى الفراش - وهى كلها نتيجة القلق - بالتهديد والحرمان، ويؤدى العقاب والسخرية أو استخدام القوة إلى زيادة القلق والتوتر لدى الطفل، ويزداد إحساسه بأنه مهمل فيستمر فى مص أصابعه (أو ما يشابه ذلك) للتخلص من الانفعال.

كذلك فإن تهديدات الأبوين للطفل قد تسبب عبثه بأعضائه التناسلية وحينما يكتشف الوالد أن طفله يعبث بأعضائه التناسلية يشتد انزعاجه، وكثيرًا ما يهدده محاولًا إيقاف هذه العادة على الفور، وتكون النتيجة أن مخاوف الطفل تنفذ إلى الأعماق وينمو لديه القلق.

الخضوع للطفل:

يعرف الوالد الخاضع لطفله بأنه الوالد الذى يجيب طلبات الطفل ومطالبه مهما كانت تافهة بصفة دائمة. مثل هذا الوالد لا يكون له سلطة ملزمة على الطفل.

وأهم سببين لهذا النمط من العلاقة بين الوالد والابن هما: إصابة الطفل أو مرضه مرضًا شديدًا يجعله عاجزًا لا يستطيع شيئًا، أو وجود نوع من السيطرة عند الطفل يضلل الآباء ولا يستطيعون أن يتغلبوا عليه. أما مشكلة الطفل المريض فإنها مشكلة معروفة فهو موضع عطف العائلة والأصدقاء، وهم يوفرون له الراحة والاطمئنان ويرفعون عنه كل المسئوليات فإذا كان هذا المرض مستمرًا لمدة طويلة فإن انغماس العائلة فى هذا السلوك قد يستمر، وكثير من الآباء يستمرون عليه حتى بعد أن تنتهى آخر علامة من علامات المرض بوقت طويل.

وليس من الغريب أن يصل الطفل إلى ما يريده بتضليل وخداع الوالدين، والأسلوب الذى يستخدمه فى هذا عادة هو أسلوب الغضب الشديد والإغماء والتشنج والثورة، وكثير من الأطفال يسيطرون على آبائهم بمثل هذه الوسيلة وخاصة الغضب الذى يمسك فيه عن التنفس حتى يزرق وجهه فسرعان ما يستسلم الوالدان خشية أن يموت الطفل أو أن يضر نفسه، كما أن بعض الأطفال

يحصلون على ما يريدون بالتهديد بترك المنزل، فيضطر بعض الآباء إلى التنازل لصغارهم خشية تنفيذ الوعيد.

وهناك ما يدل على أن هذا السلوك الخضوعى من الآباء يؤدى إلى تكوين الغرور والثقة الزائدة بالنفس والعصيان وعدم احترام السلطة عند الأطفال. فإذا ما ظهرت هذه الميول ظهورًا فعليًا فى سلوك الأطفال فإنها قد تؤدى إلى سوء التكيف الشخصى والاجتماعى، ويصبح الطفل نتيجة لهذا فى حالة من التوتر الانفعالى تتميز بعدم الشعور بالأمان والكفاية.

حماية الطفل المفرطة:

مثل هذه الطريقة تؤدى إلى الاهتمام الزائد بالطفل والانغماس فى ذلك بحيث لا تتاح للطفل الفرص لاتخاذ قرارات لنفسه أو لتحمل المسئوليات، فهو يعطى كل ما يريد وبين يديه كل ما يخطر بباله، ويأكل حين يشاء وأينما يشاء، وينام مع والديه إذا أراد ذلك، وعند أقل عرض من أعراض المرض يوضع فى الفراش، ويسرفون فى تمريضه.

وليس هناك من ينكر أنه ينبغى أن يشعر الطفل أن من بالمنزل يهتمون به كما أننا أكدنا مرارًا حاجته إلى العطف والتوجيه، إلا أن الحماية المفرطة من جانب الآباء وشدة الجزع عليه يجعل فى إشباع هذه الحاجات الأساسية شيئًا من الخطورة؛ إذ إن الأطفال الذين يخطئ الآباء فى معاملتهم يصبحون غير قادرين على أن يعتمدوا على أنفسهم، كما أنهم لن يكونوا قادرين على مواجهة الصعاب التى لا شك ستقابلهم، والنتيجة هى التهديد المستمر منهم. فإذا كبر الأطفال وجدوا أن الناس خارج البيت لن يشبعوا كل رغبة لديهم وبهذا يتكرر الإحباط، وقد يكون رد الفعل له هو نقد الذات نقدًا شديدًا أو الشعور بمشاعر الفشل والميل إلى البعد عن الآخرين، وهؤلاء الأطفال عادة يكونون قليلى المبادأة وتنقصهم الثقة بقدراتهم، ويبدو عليهم الجزع لأنهم سوف يكبرون. ويؤدى شدة الجزع عند الوالدين وحمايتهم المفرطة للطفل واهتمامهم الشديد به إلى سوء التكيف عندهم.

وقد يرجع سلوك الوالدين إلى:

١- عدم توافر الحب والعطف فى طفولة الآباء أنفسهم.

٢- العلاقات الزوجية غير المنسجمة.

٣- الإحباط فى العمل أو الخيبة فى تحقيق الأهداف المهنية.

٤- فقد الزوج أو فقد طفل آخر.

ويختلف رد فعل الأطفال على شدة جزع الوالدين عليهم، فمنهم من يأتى السلوك غير المرغوب فيه، بينما تظهر على بعضهم الآخر أعراض سوء التكيف الاجتماعى الخطيرة، وقد يصبح بعض الأطفال ضحايا لارتباطهم بوالديهم ارتباطا قويًا، أو لنقص شعورهم بالثقة بالنفس أو المبادأة، أو خوف المسئولية، أو السلوك الذى يدل على التمركز الذاتى والحاجة إلى الاهتمام، أو يكون رد فعلهم على الإحباط ردًا عنيفًا، أو أن يقاوموا السلطة مقاومة شديدة. كما أن كثيرًا منهم يحتمل أن يصبحوا ديكتاتوريين يطلبون أن يكونوا مركز الاهتمام، وينتظرون الكثير من الآخرين ويفرضون ما يحبون وما يكرهون على من يحيطون بهم، ولا يعترفون على الإطلاق بخطئهم، وينفذون ما يريدون بالغضب والعبوس والصياح والتهديد والعنف والسخرية والإيذاء.

إسقاط آمال الوالدين على الطفل:

فى بعض الأحيان يعتبر الآباء الفاشلون أطفالهم وسيلة لتحقيق ما فشل من آمالهم وذلك عن طريق التعويض، وهم يريدون أن يعيشوا حياتهم مرة أخرى بطريقة ناجحة خلال وظائف أطفالهم، وبهذا يسقطون آمالهم فى العمل ورغبتهم فى التعويض عن فشلهم المهنى بدون مراعاة لرغبات الطفل وقدراته، وهناك آباء آخرون اكتسبوا مركزًا اجتماعيًا مرموقًا بسبب ما بذلوه من جهد فيتوقعون من أطفالهم أن يستمروا فى رفع "اسم" العائلة بقيامهم بأعمال مشابهة، أما هؤلاء

الصغار- وبعضهم يحاول جاهدًا أن يكون كما يتوقع منه الوالد - فإنهم يصابون أحيانًا بحالة من التوتر الانفعالى المستمر، وهم يجدون أنفسهم معظم الوقت تحت ضغط شديد، حتى أنه لا تكاد تتاح لهم فرصة التسلية والراحة، فتكون النتيجة أن تنشأ لديهم مشاعر عدم الأمان، وفى كثير من الحالات التى يطلب فيها منهم التمكن من مواد المدرسة أو المهام الأخرى التى ليست لديهم القدرة المناسبة عليها أو الاهتمام بها فإن احترامهم لأنفسهم يصبح مهددًا وتظهر لديهم مشاعر النقص وضعف الثقة بالنفس.

تفضيل طفل من جنس معين:

والأب الذى يفضل طفلًا من جنس معين تفضيلًا كبيرًا قد يجعل طفلًا من الجنس الآخر يشعر بأنه غير مرغوب فيه، وكما ذكرنا فإن الطفل المهمل غالبًا ما تنتابه مشاعر عدم الأمان وبأنه غير مقبول ووحيد، كذلك فإنه عندما يولد طفل من جنس لا يرغب فيه الوالدان فإن خيبة أملهما كفيلة بأن تؤثر على معاملتهم له، ويصدق هذا خاصة فى الحالات التى لا يكونون فيها متكيفين تكيفًا انفعاليًا.

ومن الشائع أن يعبر الوالدان عن رغبتهما الشديدة فى إنجاب طفل ذكر وخاصة إذا كانا ينتظران أول طفل لهم، مثل هذا الموقف يشكل عقبة خطيرة أمام البنات فيأخذن صفات الأولاد لأنهن يردن أن يستمتعن بشعور القبول وهو ما يحتاج إليه كل طفل. ولكن ما أن يولد الطفل الذكر حتى يلمسن إهمال الوالدين لهن.

غيرة الوالدين من الطفل:

وقد تؤدى شعور أحد الزوجين بعدم الأمان فى علاقته العاطفية بالزوج الآخر إلى النقمة على مولد طفل ما والإحساس بأن الاهتمام الذى يوجه إلى ذلك الطفل يحرمه (أو يحرمها) من الأمان.

وعلى الرغم من أن مثل تلك المشاعر قد لا يعبر عنها صراحة، فإنها تؤثر ولا شك على معاملة الوالدين للطفل، وهى معاملة كثيرًا ما تكون ضارة بصحة الطفل النفسية.

فقد يصبح الأب – على سبيل المثال – غيورًا من طفل بسبب اهتمام الأم الزائد به، وهو الاهتمام الذى قد يرجع إلى حاجة الأم للحنان الذى تفتقده فى زوجها وفى مثل هذه الظروف لا يبالى الأب بالطفل، وقد يعامله بقسوة تؤدى إلى علاقات متوترة قائمة على العناد والمقاومة، وفى العادة فإن الطفل الذى يلقى مثل هذه المعاملة يكره أباه كرهًا شديدًا، ويميل إلى التعويض عن ذلك بطلب الأمن والعطف من الأم. وقد تؤدى عدم مبالاة الأب بالطفل إلى أن تزيد الأم عنايتها بالطفل، أما إذا كانت الأم من جهة أخرى هى التى تغار من انصراف الأب إلى الطفل فإنها قد تعامل الطفل ببرود وبلا مبالاة، إلا أن الأم يغلب أن تخفى غيرتها وعداءها تحت ستار الاهتمام الزائد والحماية المفرطة.

والطفل يدرك مثل هذه الصراعات الدقيقة فى مرحلة مبكرة من حياته، وقد يعتقد أنه سبب المشكلة؛ فيشعر بالذنب وبعدم الأمان، ويود بعض الأطفال لو أنهم عاشوا فى منازل أخرى غير منازلهم حتى يعود الوالدان إلى علاقتهما الوثيقة، والبعض الآخر يأخذ فى التخيل أن آباءه الحاليين ليسوا آباءه، وأن آباءه الحقيقيين فى مكان آخر يريدونه ويحبونه.

الأثر النفسى للعلاقات بين الوالدين والطفل:

يعامل كثير من الآباء أطفالهم بالطرق التى ترضى حاجاتهم هم الانفعالية، ولا شك أن هذا يفسر سلوك بعض الآباء تجاه أطفالهم.

وقد بين عدد من البحوث أن الطفولة غير السعيدة تؤدى فيما بعد إلى سوء سلوك الأطفال، وأكدت مثلًا أن الأمهات اللائى كانت طفولتهن أنفسهن طفولة شقية تكونت لديهن فى كثير من الأحيان ميول عصابية عندما كبرن تسببت فى إهمالهن لأطفالهن، كما أثبتت أن أطفال الوالدين المتصفين بالسيطرة رغم أنهم فى طفولتهم قد تغلب عليهم الوداعة والطاعة، فإنهم عندما يصبحون آباء يصيرون مسيطرين أشداء يفرضون سلطتهم على أطفالهم، وهكذا فإن ما جمعته هذه البحوث من الأدلة يشير إلى أن الطريقة التى تربى بها الآباء أنفسهم تؤثر تأثيرًا واضحًا على معاملتهم لأطفالهم.

وفى دراسة عن التنشئة المنزلية للآباء تبين أنه كان هناك "ارتباط وثيق بين وجود ظروف ملائمة فى طفولة (الآباء) وبين ميل الآباء نحو قبول أطفالهم"، كما ظهر أن "الآباء الذين يعطفون على أطفالهم" قد رباهم والد عطوف ذكى صدوق بذل جهده معهم وأم ذكية غير مسيطرة، وكان الأب والأم متفاهمين يعيشان فى سعادة مشتركة، وكانا حكيمين متفقين فى طريقة المعاملة، أما الآباء السيئون من الجهة الأخرى فقد أفسدهم إلى حد ما أمهات مسيطرات فى بيئة منزلية شقية وكان الأبوان لا يتمتعان بالرفقة الطيبة ويتشاجران دائمًا، وكانت طريقة معاملتهما للأطفال جافية غير متفق عليها. وتدل الأدلة فوق ذلك أن الأم أكثر أهمية من الأب فى تحديد نوع الوالد الذى سيكونه الطفل فيما بعد، إلا أن الأمهات "الطيبات" كان آباؤهن آباء أذكياء عطوفين حكماء مما يدل على أن شخصية الأب أكثر أهمية من شخصية الأم، وكان جو المنزل تشيع فيه الصداقة والبهجة، كما أنه كان منظمًا نظيفًا، وكان الوالدان متفاهمين ومثقفين على طريقة معاملة الأطفال، كذلك زودهم بثقافة جنسية فى وقت مبكر، وكانت للأمهات "الطيبات" علاقات طيبة مع الإخوة والأخوات منذ الطفولة، أما الأمهات "السيئات" من جهة أخرى فقد كانت أمهاتهن سريعات الهياج وآباؤهن من النوع العبوس، وكانت توجد خلافات بين الأبوين ويتبادلان الاتهامات كما لم يكونا على اتفاق حول معاملة الأطفال مع استمرار النقد والعقاب الشديدين.

وقد انتهى أحد الباحثين، تلخيصًا لأهمية مرحلة الطفولة المبكرة - إلى أن "كل فرد يحمل فى نفسه بقايا من طفولة وهى غالبًا ما تكون قوية واضحة، ويحدد نوع الخبرات التى لاقاها الفرد فى طفولته – إلى حد كبير – ما إذا كان تكيفه حين يكبر سيكون مرضيًا أم لا، فالإحباط الشديد فى الطفولة يثير طاقة الإنسان ويوجهها نحو حل مشكلات تافهة طفلية مما يعوق الفرد عن النمو ويجعله يثبت عند مستوى طفلى ويمنعه من النضوج.

العوامل التى تؤثر فى تكوين شخصية الطفل داخل الأسرة:

إن من أهم الأمور التى تتعرض لها حياة الطفل اليومية التى تحول بينه وبين التكيف السليم هى علاقته بالراشدين وعلى وجه الخصوص الآباء والإخوة.

والأسرة هى التى ترسم الخطط لأطفالها ليتعلموا الاعتماد على النفس فى سن مبكرة وهى تعمل كل ما فى وسعها لتأكيد نضجهم، والأسرة حين تحترم رغبة أطفالها فى التحرر والاستقلال دون إهمال رعايتهم وتوجيههم فإنها بذلك تعمل على خلق جو من الثقة بين الآباء والأبناء هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنها تعمل على وضع خطة واضحة نحو تكيف سليم يساعد على النمو والنضج والاتزان – ولكن هذه الأمور التى تنشدها فى حياة الطفل لكى يكون إنسانًا فاضلًا متمتعًا بالسعادة لا تحقق بمجرد الكلام، بل إن هناك عوامل كثيرة تؤثر فى تكوين شخصية الطفل فى داخل الأسرة منها:

١- اختلاف الأجواء المنزلية.

٢- العوامل البيئية.

٣- الاتجاهات الوالدية.

٤- العلاقة بالإخوة داخل الأسرة.

٥- حجم الأسرة.

٦- ترتيب الطفل بين إخوته.

أ - اختلاف الأجواء المنزلية:

يتوقف مستوى التكيف والنمو لدرجة كبيرة على اتجاه الوالدين وعلى الجو السيكولوجى والاجتماعى السائد فى المنزل، وهذه الأجواء المنزلية ليست من نمط واحد، فهى تختلف من بيت لآخر وفيما يلى نماذج مختلفة من تلك الأجواء المنزلية.

١- المنزل النابذ:

أثبتت الدراسات المختلفة أن هناك من المنازل ما له طابع النبذ. وهنا نتساءل: من الذى يقوم بالنبذ فى المنزل؟ هل هو الأب أو هى الأم؟ أو هما معًا؟ وما الدور الذى يلعبه الأشقاء والشقيقات؟ هل يعيش الأقارب الكبار فى المنزل؟ وإن كان كذلك. فما الدور الذى يلعبونه؟ كل هذه العوامل السابقة وغيرها كثيرة، يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عندما تحاول أن تعرف ما البيت النابذ، فمثلًا قد يكون هناك أب ينبذ، وأم تسرف فى العطف فى نفس المنزل. مثل هذا التذبذب فى المعاملة يؤدى إلى نظام غير مستقر وصراع أبوى، أما إذا كان النبذ من الأم فالنتيجة تكون أسوأ لأن تقبل الأم للطفل شرط ضرورى لتنشئة اجتماعية فعالة، والنقص فى هذا التقبل يحبط حاجة الطفل إلى الحب ويزيد من مقاومته لتمثل قواعد المجتمع الذى يعيش فيه، وبناء على ذلك فإن النبذ الأمومى كثيرًا ما يؤدى إلى أن يصبح الطفل عدوانيًا ومضادًا للمجتمع.

ونستطيع أن نقسم نبذ الآباء للأبناء قسمين مختلفين: فالنبذ يمكن أن يكون نبذًا دائمًا منذ البداية، حيث يشعر الآباء فى أمثال هذه الحالات بعدم حبهم لأبنائهم، ويلاحظ علماء النفس فى وصفهم لهذا الأب الذى ينبذ ابنه نبذًا مستمرًا، بأنه يحاول إخضاعه إلى القواعد السلوكية الحديدية، وهم لذلك كثيرًا ما يتخذون مقاييس من القوة والصرامة بلا سبب ظاهر أكثر من الرغبة فى الحرمان، أو الأم التى لا تستطيع أن تمنح طفلها الحب والاهتمام ودائمًا تنبذه قد يرجع ذلك إلى حد كبير لبناء شخصيتها فإذا كانت تعسة ومحبطة فسوف يكون من الصعب عليها أن تتسامح مع طفلها.

أما القسم الثانى من النبذ فيكون على شكل تجاهل لرغبات الأبناء. فهناك نوع من الآباء يهملون أبناءهم ولا يعملون معهم شيئًا وفى هذه الحالة تتوافر للطفل فرصة للاستقلال طالما أنه لا يتطفل على ما يفعله والده، أو يفرض نفسه عليهما برغباته.

والنتيجة التى تخرج بها من كلا النوعين من النبذ أطفالًا غير متكيفين نفسيًّا.

٢- المنزل الديموقراطى:

هذا النمط من المنازل يعتبر عاملًا من عوامل التكيف السليم. إن سياسة مثل هذا المنزل تقوم على الحرية والديموقراطية فالأبوان يحترمان فردية الطفل. إن الآباء الديموقراطيين يعملون جهدهم لتوفير الفرص الملائمة لنمو الطفل نموًّا سليمًا صحيًّا ونفسيًّا ويعملون على تنمية شخصيته، والنظر إليها على أنها شخصية فريدة لها قدراتها وميولها واتجاهاتها، وأن تتاح لها فرصة التنمية إلى أقصى حد ممكن، والنظام داخل هذا الإطار الديموقراطى يقوم على الحب والنشاط والحركة الحيوية والإيجابية والتفاعل والتعاون عكس النظام فى المنزل النابذ يقوم على الشدة والإرهاب والحرمان والإهمال، والأطفال الذين ينتمون إلى بيوت ديموقراطية يتميزون عمومًا بالنشاط والمنافسة والانطلاق.

٣- المنزل المتسامح:

إن أى معاملة تقوم على التسامح المعقول تجعل تكيف الطفل أسهل تحقيقًا؛ لأن هذا الأسلوب فى المعاملة يعطى الطفل الشعور بالأمن الحقيقى، ويخلق له جوًّا يستطيع فيه أن يتجه نحو الاستقلال الشخصى، إلا أنه عندما يتحول التسامح إلى تساهل زائد تكون النتيجة سيئة، وقد يؤدى الإسراف فى الحنان والرعاية بالوالدين إلى تشكيل الطفل تشكيلًا جديدًا يؤدى غالبًا إلى أن يخلق من الأطفال ذلك الطراز الأنانى المتشبث الذى يتركز حول نفسه فقط، ونجده دائما يتوقع المساعدة والاهتمام من الآخرين، ويحاول أن يلفت إليه اهتمام الآخرين وهو يشعر أن هذا الاهتمام من حقه، وهذا الأسلوب من الحماية الزائدة من شأنه إعاقة نمو السلوك الاستقلالى لدى الأطفال.

٤- المنزل الذى تسود فيه السلطة والتحكم الأبوى:

فى مثل هذا المنزل يكون الوالد الشديد المتعسف سببًا فى نشوء القصور والشذوذ فى نفس الطفل، كما أنه إذا كان أحد الوالدين سريع الغضب لا يحسن تهذيب

صغاره أدى ذلك إلى اعوجاج شخصياتهم اعوجاجًا لا يقل فى خطورته وضرره عما قد ينزل بهم من عاهات لو أنه بطش بأبدانهم واعتدى عليهم بالضرب والإيذاء. ومن اللازم أن يتذكر الآباء والأمهات أن للطفل حياته الوجدانية؛ إذ إنهم كثيرًا جدًّا ما يفعلون ذلك؛ لأننا كثيرًا ما ننسى أن للطفل حاجاته وانفعالاته وأن لها من الأهمية قدر ما لأذنيه وعينيه، وفى أعماق هذا المخلوق الغض شغف كامن بالظهور ورغبة ملحة فى فرض سطوته، تدفعه على الدوام إلى مناهضة مألوف القوانين والعادات التى لا يفهم منها قليلًا أو كثيرًا. ومن اللازم أن لا يغيب عن بالنا أن للطفل آماله ومطامحه، وأن له شكوكه ومخاوفه.

ومهما تبلغ مسئولية الوالدين فى إرشاد الطفل وتدريبه وتوجيهه من أهمية فإنها لا ينبغى أن تطغى على موقف أساسى آخر ينبغى أن يتخذاه، وذلك هو أن يخلقا فى البيت جوًّا من المحبة تسوده الرعاية ويشيع فيه العطف والعدالة بدلًا من الشعور بعدم الأمن والحيرة، فسلوك الطفل هو بكل بساطة أنواع من رد الفعل على البيئة التى يقوم فيها.

ب- العوامل البيئية:

هناك عوامل بيئية متعددة يمكن أن تظهر فى المنزل وتؤثر على درجة تكيف الطفل وتكوين شخصيته، وبعض هذه العوامل يتصل بالجو السائد فى المنزل، هل هو من نوع الذى يسوده الوئام؟ أم هو من النوع المفكك؟.. والبعض الآخر عوامل لها علاقة بالمركز الاجتماعى والاقتصادى للأسرة. وكذلك هناك عوامل تؤثر وتلعب دورًا مهمًّا فى النمو مثال الاختلافات فى الجنس، الفاصل الزمنى بين الإخوة وتغيير الموطن.

١- البيت المفكك:

يعرف البيت المفكك بأنه نقطة رئيسة فى انعدام التكيف السليم وهناك عدة عوامل تؤدى إلى تفكك البيت: الطلاق، الانفصال، الغياب الكثير عن المنزل بسبب العمل، مرض أحد الوالدين مرضًا مزمنًا، وفاة أحد الوالدين.... إلخ.

ولقد ثبت أن غالبية الأطفال المطرودين من المدرسة بسبب سوء التكيف، كانوا من بين أبناء البيوت المفككة، وكذلك اتضح أن الشباب الذين انفصل آباؤهم ظهر عندهم ميل شديد للغضب ورغبة فى الانطواء والانسحاب بعيدًا عن الجماعات، كما كانوا أقل حساسية للقبول الاجتماعى وأقل قدرة على ضبط النفس وأكثر ضيقًا. وقد قرر أحد علماء النفس أن الشجار المتعاقب فى المنزل هو سبب أساسى يكمن وراء الفشل الذى يلاقيه الابن، وخاصة إذا عمد الوالدان إلى اتخاذ الطفل محورًا لشجارهما وقد يجدر بنا أن نذكر هنا أن القواعد الأساسية فى تنشئة الأطفال أن يكون الوالدان جبهة واحدة إزاء الطفل، فإذا ثار بينهما خلاف فى الحكم فليلتمسا له الحل بعيدًا عن سمع الطفل؛ لأنه إذا تكررت مشاجرات الأبوين فى وجود الطفل فإنه لا يكتسب فقط أسلوب المشاجرات فى التعامل مع الآخرين بل وقد يستجيب كذلك للقلق ومشاعر الإحباط.

٢- الاختلافات فى الجنس:

نتوقع عادة أن يكون الأولاد أقوياء شجعان واثقين من أنفسهم طموحين، ونتوقع على أية حال من البنات أن يكن اجتماعيات مهذبات منظمات، وأن يخفن مما يهددهن وأن ينسحبن من المواقف الصعبة.

بل إن الكتب التى يقرأها الأطفال تصور البنات والنساء من ناحية بأنهن خائفات غير منافسات ولا طموحات، وتصور الذكور من ناحية أخرى بأنهم شجعان وذوو أعمال بطولية، ونجد هذه القيم الفارقة بين الجنسين عند الآباء والأطفال على السواء.

وعلى هذا يشترك الأطفال والكبار فى تصور مشترك لدور الذكر على أنه قوى وعدوانى ومثير للخوف، كما يشتركون فى تصور دور الأنثى على أنها هادئة وسلبية وودودة. وفضلًا عن ذلك، كلما ازداد نضج الأولاد والبنات بدءوا يضيفون أهمية أكبر وقيمة أعظم على اتجاهات الذكور وخصائصهم عما يضيفونه على اتجاهات

الإناث وخصائصهن، ولنا أن نتوقع بعد ذلك أن مفهوم الذات عند البنت يختلف عنه عند الولد وبهذا تتأثر الشخصية وتكوينها باختلافات الجنس داخل الأسرة.

٣- الفاصل الزمنى:

تشير كوخ بأن فرقًا يتراوح بين سنتين وأربع سنوات بين الإخوة يكون له أكبر تأثير يهدد الطفل الأكبر، فإذا بلغ الطفل الأول ثلاث سنوات عندما يولد له أخ جديد، فإنه معرض لأن يصبح قلقًا حول إمكانية فقدان الحب، أما إذا بلغ الطفل الأول عامًا واحدًا عندما يصل إخوة له فإن صورة ذاته تكون غير واضحة وغير متبلورة بحيث يحتمل ألا يعتبر الوليد الجديد تهديدًا كبيرًا أو منافسًا فى حب أمه. وإن بلغ الطفل الأكبر السابعة من عمره أو الثامنة عند وصول الأخ الجديد فإنه يكون أكثر استقلالًا عن والديه وأقل تعرضًا للتهديد من قبل القادم الجديد للأسرة.

وفضلًا عن ذلك فإن الطفل الأكبر فى هذه الحالة يغلب أن يصبح صورة بطولية أو نموذجًا يتقمصه الطفل الأصغر مما لو كان أكبر منه بعامين فقط.

٤- المركز الاجتماعى والاقتصادى:

تختلف اتجاهات الآباء تجاه أطفالهم باختلاف الطبقات الاجتماعية والاقتصادية (عليا – متوسطة – دنيا) فالأسرة فى الطبقة العليا تهدف إلى أن يحصل ابنها مجدًا كبيرًا لأن المركز الاجتماعى فى مثل تلك الأوساط مهم، لذلك نجد اتجاهات الآباء نحو أطفالهم فى هذه الطبقة هى توفير الاستعدادات وتهيئة الظروف المناسبة ليصل الطفل إلى النضج المبكر والتحرر والاستقلال.

أما فى حالات الأسرة من الطبقة الدنيا فإن الأبناء عادة لا يفتقرون إلى العطف أو الحب فى البداية، إلا أنه عندما يكثر عدد الأبناء، وتضاعف المسئوليات الاقتصادية هنا تبدأ معاملة الآباء تتغير، هذا ويتوقع الآباء فى الطبقة الدنيا من الأبناء أن يسلكوا كالكبار فى سن مبكرة؛ لأن الكبار ليس لديهم إحساس بعالم

الصغار، والتربية تقوم على الطاعة والعقاب الجسمانى، ومثل هذه الاتجاهات لا تعطى للطفل الفرصة لأن ينمو نموًّا سليمًا مكيفًا.

أما فى الأسرة المتوسطة فإن نمط المعاملة يقوم على أساس من الرقابة الشديدة دون اتباع النظام الصارم، ولا يستعمل العقاب البدنى إلا نادرًا ويستبدل هذا العقاب بالتأنيب، ويلجأ أفراد الطبقة المتوسطة إلى الرقابة الشديدة خشية ما يقوله الناس عن سلوك أبنائهم، ولا تدل هذه الرقابة على نبذهم لأبنائهم، بل على العكس من ذلك فهم مرغوب فيهم، ولهذا فمن الطبيعى أن تختلف شخصية الأطفال باختلاف أساليب تنشئتهم واختلاف تفاوت طبقاتهم الاجتماعية.

وهناك جانب آخر مرتبط بمستوى الأسرة الاقتصادى الاجتماعى، فنظام المنزل والترتيبات العائلية الداخلية تؤثر بطريق غير مباشر على نمو الطفل وشخصيته وأهمها عدد حجرات المنزل وسعة هذه الحجرات. وهل للطفل غرفة خاصة؟ ففى حالات الاختلاط فى حجرة مشتركة مع الوالدين يمكن أن تنمو مخاوف الكبت اللاحق (مثل الخوف من ممارسة الوالدين للعلاقات الجنسية) التى ينظر إليها الطفل على أنها فضيحة خلقية، والتثبيت الجنسى على الوالدين، والخوف من الظلام، والتبول اللاإرادى فى الفراش... إلخ.

وهذا الاختلاط فى المسكن يجعل الحياة فى الجماعة أكثر مشقة ويثير التوتر فى العلاقات بين الوالدين والأطفال نتيجة الاحتكاك الدائم فيما بينهم مع انعدام مقومات الحياة الشخصية. فكل فرد منهم يعتقد فى هذه الحياة المختلطة المستمرة أنها الحد الأدنى من الذاتية الضرورية. وينشأ عن ذلك عديد من ردود الفعل العدوانية أو القائمة على الإسراف فى الحماية.

٥- تغيير الموطن:

يحدث أحيانًا أن بعض الأفراد تقودهم ظروفهم إلى العيش فى بيئات اجتماعية متعددة، وينتج عن ذلك عديد من المشكلات التى تعترض نمو الطفل وتطوره، فنحن نعرف – بالنسبة للأطفال من ضحايا الحرب – أن الخطر الأشد جسامة لا

يكمن فى الحرب ذاتها وإنما فى التحولات الاجتماعية الدائمة فى البيئة الاجتماعية التى تنشأ عن أحداث الحرب، وهى تحولات ينتج عنها شبه استحالة فى حصول عمليات التقمص المستمر، وتلك هى حالة المهجرين الذين يتعرضون – بحكم كونهم غرباء فى الأوساط الجديدة – للصعوبة المزدوجة فى التخلص من بيئاتهم القديمة، والعجز عن الاندماج فى البيئات الجديدة.

ذلك أن اختلاف الثقافتين: القديمة والجديدة يولد العديد من صراعات التقمص ومشكلات السلوك، إذ يمكن أن يتجزأ "الأنا" لدى الأفراد المهاجرين الذين تنازعهم التأثيرات المختلفة لكل من البيئتين. وقد لوحظ أن نسبة مئوية عالية من الأطفال، الذين بدت عليهم أعراض عدم التكيف، هم من أبناء هؤلاء المهاجرين الذين تنازعهم هذه التأثيرات المتناقضة، وهنا تبدو الحاجة ماسة لتقديم المساعدات للطفل ليصبح أكثر تكيفًا للمجتمع الجديد حتى يصير جزءًا منه. وبدون هذه المساعدات ربما يتعرض الطفل لعديد من المشكلات فى الوقت الذى هو أحوج ما يكون فيه إلى الاطمئنان والاستقرار والهدوء الانفعالى.

جـ - الاتجاهات الوالدية:

قد يكون اتجاه الوالدين أو أحدهما نحو الوالدية أنها مسئولية لا طاقة لهما باحتمالها، فأمثال هؤلاء الآباء يكثرون من مسئوليات الحياة الوالدية ومطالبها. تنعكس آثار هذا الاتجاه على الأطفال أنفسهم. إذ نلاحظ أن والديهم يعاملانهم معاملة تقوم على عدم التقدير وعلى الإهمال والنبذ؛ الأمر الذى يؤدى إلى شعور الأبناء بعدم الانتماء إلى الجو العائلى.

وقد يتخذ بعض الآباء اتجاهًا آخر، يتمثل فى أن الحياة الزوجية أو الوالدية حالت بينهم وبين القيام بأوجه من النشاط الاجتماعى الخارجى؛ إذ إن هذه الحياة أصبحت عقبة كئودا فى سبيل حرياتهم. إن أمثال هؤلاء الآباء يفضلون أن يعيشوا فى خيال شاب أو فتاة عيشة طليقة خالية من المسئوليات والالتزامات أمام الأبناء. ولا شك

أن هذا الاتجاه الشاذ له أثر واضح على نمو الأبناء وتكوينهم النفسى ونمو شخصياتهم.

وكما أن اتجاهات الوالدين نحو الوالدية تؤثر فى معاملتهم لأطفالهم فإن اتجاهاتهم نحو أبنائهم لها أثر واضح فى نموهم وتكوين شخصياتهم.

إن معاملة الوالدين لأبنائهم تتأثر إلى حد كبير بما خبروه من تجارب أيام كانوا أطفالًا، فهم إلى حد كبير يعكسون ما لا قوة من معاملة أيام صباهم، أو يحاولون تجنيب أبنائهم ما لم يكن يروق لهم من سلوك آبائهم وأمهاتهم، إن هناك فئة من الآباء تعيد مع أبنائها نوع المعاملة التى كانوا يعاملون بها فى أثناء طفولتهم، وهناك فئة أخرى تجنب أبناءها كل ما كان يؤلمهم من معاملة تلقوها، وهناك من الأمهات من يغدقن على أبنائهن لأنهن قد حرمن من عطف أمهاتهن، أو أن الأم تعبر عن حبها لطفلها بشكل من أشكال الحب الأمومى المختلفة سواء هو حب أنانى أو حب أمومى متطرف، والحب الأمومى المرتبط بالإفراط فى الوساوس، أو الحب الأمومى المرتبط بالعدوانية باسم الحب.

د - علاقة الإخوة داخل الأسرة:

علاقة الطفل العاطفية بإخوته ذات أثر كبير فى تشكيل حياته الاجتماعية المقبلة وفى تعيين نوع شخصيته، فالطفل وإخوته يكونون مجتمعًا صغيرًا. هو ميدان يكتسب فيه خبرات متعددة. ولا بد أن توقع فى هذه العلاقة قدرًا من الغيرة والمنافسة ولكن يخفف من حدتها - فى الظروف العادية - ولاء الطفل لأسرته والمتعة التى يجدها فى رفقته لإخوته، سواء فى النشاط أو اللعب أو التضامن لمجابهة البطش من الكبار واستبدادهم.

وإن حدث هذا التضامن دل على سلامة النمو الانفعالى أو يكون بشيرًا بنزوع الطفل إلى التحرر من التعلق الطفلى بوالديه، وبقدرته على الاستقلال الوجدانى لمواصلة النمو؛ لأن النمو الوجدانى لا يتقدم إلا بتخلى الطفل فى الوقت الملائم من ارتباطه الطفلى بأمه ليهيئ لارتباط أنضج.

أما إذا كانت المنافسة حادة، والتسابق على حب الأم يتسم بالغيرة العنيفة كان من الطبيعى أن يرى الطفل فى أخيه غريمًا يهدد مركزه لدى أمه، وهكذا بقدر عنف الحب يكون العنف فى الخوف من فقدانها وفى الغيرة عليها، وكثيرًا ما يبقى ذلك القلق مع الطفل فى المراحل التالية بل وفى الكبر: إن أحب شخصًا داخله الخوف أن يفقده، وساوره الشك فى كل من يرتبط بذلك الحبيب والاستجابة الطبيعية لأى غريم هى البغض والرغبة فى العدوان. ولذلك يستحيل على طفل يرزخ تحت هذا الصراع أن يبادر إلى إقامة علاقات ودية بالناس. فعلاقات الطفل فى الأسرة تجعله يخرج إلى الحياة الاجتماعية وقد تزود بشعور سابق تجاه الناس، وفكرة سابقة عما ينتظر منهم.

فاستجابة الطفل الانفعالية لأول معاملة تستقبله فى روضة الأطفال ليست استجابة مباشرة لها بل استجابة تتأثر بما فى نفسه من مشاعر تجاه الأم أو المربية، وكذلك استجابته لأقرانه تتلون بشعوره السابق نحو إخوته. وما مر به من خبرات انفعالية متصلة بهم من غيرة ومحبة وعدوان وشعور بالذنب. فهذه الديناميكية فى العلاقات العائلية هى عنصر لازم للنضج الاجتماعى، والعلاقة بين الإخوة داخل الأسرة لها ملامح خاصة تميزها أية خبرة متاحة فى الجماعات الأخرى وهذه الملامح هى:

الاتساع والشمول، والشمول قد يبدو مثلًا فى عامل الزمن، فالأطفال فى نسق الأسرة يلعبون معًا ويشتركون فى عمل واحد ويجتمعون معًا لفترة طويلة كل يوم وأسبوع وعام؛ الأمر الذى يختلف فى كثير من خصائصه عن العلاقات الأخرى مثل هذه الحقيقة ومعناها من وجهة نظر الأطفال يتجاهلها الكبار عادة ولا يبدون نحوها اهتمامًا كبيرًا. ويرى الآباء فى الفترة التى يلعب فيها الأطفال معًا وقتًا هادئًا يتحررون فيه من مسئولياتهم نحوهم، وعندما تنشأ المشاجرات الحتمية بينهم يظن الآباء أن مشكلة الغيرة هى التى دبت فيها، وجعلتهم يتصرفون على هذا النحو.

والواقع أن ما يفشل الآباء فى إدراكه بصفة عامة يتصل بتقدير الحقائق من وجهة نظر الأطفال أنفسهم. فهذه المشاجرات والخلافات تنشأ بين شخصين حتى ولو كانا من الصغار، يجبران على قضاء ساعات طويلة مع بعضهما البعض. وعادة فى ظروف مقيدة من ناحية المكان والموضوع والميول.

المظهر الثانى فى شمول العلاقات بين الإخوة يبدون مدة الاتصالات فيما بينهم. ونتيجة الظروف المعيشية يأكل الأطفال فى نفس الأسرة مع بعضهم البعض، ويستحمون معًا، ويشتركون فى ذات الحجرة، ويلعبون بنفس اللعب، ويرتدون ملابس بعضهم أحيانًا، ويتصلون فى كثير من المواقف الأخرى، وهذه الكثافة فى الاتصال تنتهى بنا إلى المظهر الثالث وهو الارتباط الوثيق فى العلاقات والاتصالات بين الإخوة التى تشمل على جوانب حياتهم والحياة فى المجتمع الأسرى الصغير مع أفراد متقاربين فى الأعمار والمراكز تعنى الكثير بالنسبة للطفل، فهى أولًا تنقله إلى عالم الواقع وتجعله يعيش فى إطاره، ومن السهل على الأطفال الذين يلعبون بمفردهم مع أشياء جامدة أن يعيشوا فى عالم من الخيال ويبتكروا أصدقاء يلعبون ويتحدثون معهم وهو ما يعرف بالإحيائية، وكثير من الأطفال الوحيدين يفعلون ذلك، ومن المحتمل أن لا يحدث لك عندما يعيش أطفال آخرون فى أعمار متقاربة فى الأسرة.